مكتبة

إليزابيث سمارت

قرب محطة غراند سنترال جلست وبكيت

ترجمة: أحمد م. أحمد

قرب محطة
غراند سنترال
جلست وبكيت

رواية

Author: **Elizabeth Smart**	اسم المؤلف: إليزابيث سمارت
Title: **By Grand Central Station I Sat Down and Wept**	عنوان الكتاب: قرب محطة غراند سنترال جلست وبكيت
Translated by: **Ahmed M. Ahmed**	ترجمة: أحمد م. أحمد
P.C.: **Al–Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2022**	الطبعة الأولى: 2022

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © The Estate of Elizabeth Smart

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800 بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

+ 964 (0) 790 1919 290 Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275

+ 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 + 961 706 15017

+ 961 175 2616

مكتبة

t.me/soramnqraa

إليزابيث سمارت

مكتبة
t.me/soramnqraa

قرب محطة غراند سنترال جلست وبكيت

ترجمة : أحمد م. أحمد

إلى

ماكسيميليان ڤون أوباني ساوثويل

مقدمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

تقول إليزابيث سمارت عن نفسها في أحد مواضع هذا الكتاب المشغول بحزن رهيف، «أنا أكثر هشاشةً من الأميرة التي لم تستطع سبع فرْشات أن تخفي عنها حبة البازلاء».

لكن الحكاية الخيالية الأقرب للمقارنة هي *(الجميلة النائمة)*، لأن *(قرب محطة غراند سنترال جلستُ وبكيتُ)* هي قصة امرأة مضى على نومها مائة عام إلى أن جاءتْ قبلةُ رجل (وبتعبير أدق شِعرُه) فأيقظتها على الحياة والحب.

استحضار سمارت للحب جارفٌ ومؤلم ومبهج وجذل وتعويذيّ:

> ***لحظةَ قعقعت سيارة الفورد عند الباب، متأخراً خمس دقائق (خمس سنوات)، وعبَر العشب تحت أشجار الفلفل، أقف خلف الستائر الرقيقة، عاجزة عن التحرك للقائه، أو التحدث، وكأنني تحولتُ إلى سائل سيغزو كل منفذٍ فيه لحظةَ يفتح الباب. كان الهدف الوحيد المنشود من الطائر الجديد، كلَّ فمِه وبملء إرادتـه، أُغمضُ عينيَّ وأرتجف، مترقِّبةً نعيمَ اللمسة الحقيقية.***

ومرة أخرى:

ما الذي سيحدث؟ لا شيء. لأن كل شيء قد حدث. والزمن الآن، وليس للزمن أن يكون أفضلَ قَطُّ. لا شيء يمكن أن يفوق اللحظةَ أكثر من هذه اللحظة، وقبلها لم يكن هناك شيء. لا حقائق صغيرة في الحياة، هناك حقيقة واحدة هائلة فقط.

أعرف، أعرف أن هذه لا تعدو كونها مقدمة وليست الكتابَ في حدّ ذاته، مع ذلك سأُوْرد اقتباساً آخرَ:

لكن ضمانةَ حبي لا يستاء من أي مناسبة قد تُحِلّها الحيطة أو الحنان، وفي النهاية فإن جلَّ ما يمكننا فعله هو الجلوس إلى الطاولة التي تتقاطع فوقها أيدينا، والاستماع إلى الألحان الآتية من البيانو الكهربائي، مع حبٍّ كبير وبسيط بيننا لا شيء بعده يقال.

في هذا العمل الرفيع المستوى من الصدى العاطفي المتواصل، فإن ما يأتي قد يعلّق القارئ في عملية غسل كبيرة للّغة: ففي آب/ أغسطس من عام 1937 في لندن، عثرت إليزابيث سمارت، من أوتاوا، كندا، على كتاب شعري في مكتبة على شارع تشارينغ كروس، وكما تقول القصة، فقد وقعت في حب مؤلفه، جورج باركر. لكن مجرد عشق كلماته لن يجدي نفعاً؛ وأرادت أن تعشق الرجل نفسه. لذلك، سوف تحتاج إلى لقائه. سيستغرق ترتيب هذا اللقاء سنواتٍ ثلاثاً، الأمر الذي تطلَّب حيلاً مختلفة (تظاهرها بأنها تهوى جمع المخطوطات) وبعض

المال (كانت تنتمي إلى عائلة ثرية تدعمها بعض الشيء). أخيراً، في عام 1940، بعد حَثّه على المجيء من مكان بعيد مثل اليابان، حيث كان يمارس التدريس مكرَهاً، التقيا في كاليفورنيا، وهناك كانت تعيش بين جماعة من الفنانين في بيغ سور. بادئ الأمر تبادلا النظرات في محطة للحافلات في مونتيري -هكذا بدأ الكتاب- وسرعان ما أصبحا عاشقَين. ثم سيحضنان أربعة أطفال.

سرعان ما اعترضتهما مشكلات شتى، وأُلقيَ القبض عليهما بموجب *قانون مان* بسبب سفرهما لغرض غير أخلاقي عندما حاولا اجتياز حدود الولاية.

مراثي سمارت:

إنهم يقتادونني في سيارة شرطة. زوجة الشرطي تجلس جامدةً في المقعد الأمامي. إنهم يدّعون عليَّ بتهمة الصمت والحب.

تسأل أحد رجال الشرطة الذين اعتقلوها:

ما الذي تعيش من أجله إذاً؟

قال الضابط، أنا لا أؤيّد هذا النوع من الأشياء، لأنني رجل عائلة، وأنتمي إلى نادي الروتاري.

لدى مناقشة *هذا النوع من الأمور*، تقدم سمارت عدداً من المراجع الكتابية، وأكثرها وضوحاً مع العنوان، تلك التوليفة المبهرة لمحطة قطار نيويورك وآلام المغتَرَب اليهودي، لكن إلماحاتها الأكثر تردداً هي عما سبقَ المسيحية. «أعتقد أن جوبيتر كان مع ليدا، والآن لا شيء

يمكن أن يتجنب حروب طروادة،› هو أحد الأمثلة. كما تلمّح إلى أسطورة ذي ‹الصوف الذهبي›، إلى هيلين الطروادية، إلى ديوجين، إلى بينيلوب، وإلى ديدو.

هناك بالفعل شيء من حساسية إغريقية قديمة في هذا الكتاب، حيث تأتي أخلاق السلوك في المرتبة الثانية بعد استحضارها العاطفي. لذلك أشعر أنا الآخر - وبالتسليم بحقيقة الوجود أنه لا يمكن لأي قانون أخلاقي أن يترك أثراً. ومع ظهور *قرب محطة غراند سنترال* عام 1945، وكلنا نعرف ما حدث بين عامي 1939 و1945. لم تكن سمارت جاهلة أو عديمة الشعور -فهي تشير بكل صدق إلى ضحايا الهولوكوست، على سبيل المثال- ولكن على حد تعبيرها:

> ***لماذا يجب أن تقلل حتى عشرة قرون حافلة بويلات العالم من حقيقة أنني أحب؟ أحضن البذرة، أحتضن البذرة، حتى في فوهة البركان. أنا آخر امرأة حبلى في عالم خاوٍ. السرير بارد والغيرة مريرة مثل القبر.***

هل كانت رهينة الذات، متعالية، منفصلة عن الواقع؟ لم تكن كذلك قَطُّ. طلبت الوفرة، لكنها رضيَتْ بواقع أنها قد تنتهي في الجحيم. ‹الأمر في متناول اليد. لا شيء نفعله سوى القعود وتلَقّي غضب الرب›. وكان الغضب قادماً، ليس من سلطات الشرطة وممثلي العالم القاسي بأسره فقط، ولكن في متناول اليد، لأن جورج باركر كان متزوجاً -لقد طار من اليابان مع زوجته، جيسيكا، التي شاهدتها سمارت أيضاً للمرة الأولى في مونتيري- وسيحظى بعلاقات دائمة مع عدد أكبر من النساء إلى جانب زوجته الأولى وإليزابيث سمارت، وعدد أكبر من الأطفال مقارنة بالأربعة الذين أنجباهم معاً (خمسة عشر إجمالاً!).

هنا تكمن الغاية في مقارنة فنّ إليزابيث سمارت بحياتها، والدليل على أن جوهرة الكتاب هذه ليست مجرد قصة حب: لقد وقعت إليزابيث في حبّ جورج، واستغرق الأمر وقتاً وألاعيبَ ومالاً لمقابلته، تورطا في مشكلات ذات طابع قانوني، أصبحا منبوذَين اجتماعياً، الأمر الذي كان يفطر قلبها - *وأنجبت من الرجل أربعة أطفال، أطفال قامت بتربيتهم جميعاً بمفردها*. إنها امرأة لم تأخذ على محمل الجد مقدِّمةَ الحب فحسب، بل عواقبَها. إنه كتاب عن الرغبة التي لا تكلُّ لكائن في أن يحِب ويُحَب، بغض النظر عن أي شيء. كانت ذكية، واضحة، مطواعة، وتعمل بجدّ، ومسؤولة في جنون حبِّها.

الصورة على الغلاف الخلفي من الطبعة التي بين يديّ والمنشورة خلال حياة الكاتبة، تُظهر امرأة تجاوزت السابعة والستين من عمرها، شعرها غير مصفف، وكتَلاً لحمية تحت عينيها، ولفافة تبغ بين شفتيها. إنها صورة استفزازية بأمانتها لامرأة أنهكها الحب والحياة، ولكن على الإنترنت، يمّحي الزمن بسهولة، توجد صورة إليزابيث الشابة - وهي حقاً «الشقراء الجميلة» كما يسميها الآخرون في الكتاب. لا أستطيع أن أتخيل أن جورج يدرك تماماً ما قد حظي به، فهاهنا لم يكن جمالاً جسدياً فحسب، بل جمالاً بكل معنى الكلمة. كانت علاقتهما عسيرة، ولم يكن من السهل تربية أربعة أطفال غير شرعيين. لكن لا يزال هذا السؤال يومض دون أن يتلاشى: *ما الذي تعيش لأجله؟*

عندما قرأت هذا الكتاب للمرة الأولى منذ سنوات قليلة مضتْ، تركَني في حالة ذهول. يا له من شيء جبار، يا لها من تجربة تستحق الاستغراق فيها، يا لها من حياة عليك أن تعيشها. شعرتُ بتبلّد الإحساس، بالقصور المعرفيّ، وبأنني غير مهجوس بالمقارنة. على أي سطح أتزلج؟ لماذا لا أستطيع الغوص في الأعماق؟ ثم تطلّعْتُ حولي وقررت، باللجوء إلى فعل بسيط من المعاينة الوجدانية، أنني أيضاً

أحب بَدِيليَ جورج باركر وأنني أيضاً أحب أطفالي، وذلك بنوع من الحب الراسخ والعميق، الحيوي والتوجيهي، هو إليزابيث سمارت. لكن في الغالب لا أحد يتمعّن في مشاعري أو يتفكّر فيها، منحّاة جانباً من قبَل العالم المتطفّل ومتطلبات الحياة اليومية التي لا نهاية لها – فأنا الآخر لديّ أربعة أطفال. الحب الـمُعاش له جوانبه المملّة. لكن بالتأكيد، هناك الكثير من الحب الذي سيأتي، وبالمقابل هناك أيضاً الفواتير التي سيتعيّن علينا دفعها والبقالة التي لا مناص من شرائها.

وهنا تكمن عظمة إليزابيث سمارت. إنها تستعين بما لك ولي، وبما هو مُعاش في كل يوم وفي كل مكان، وما يوجد في كل ضاحية وفي كل شقة، كي تُحيلَه أسطورياً. أنت لست فقط دوريس وديف اللذين يعيشان في إسّكس. أنت أيضاً تريستان وإيزولد، روميو وجولييت، دانتي وبياتريس، وإليزابيث وجورج – أنت فقط لا تدرك ذلك، أو سهوتَ عنه للحظات، أو فاتك القطارُ اللحظةَ (لكن ربما لم يفت الأوان كي تستقلَّ التالي).

اقرأ هذا الكتاب بصوت عالٍ، فمع أن الحب هو الثيمة، تبقى اللغة هي الحبكة والشخصية والمحيط الروائي. إنه كتاب مثالي لأن يُشارَك ويُقرأ بصوت عالٍ على مسامع *شخص ما*. ويحدوني الأمل، أثناء قيامك بذلك، أن تجد أنك أفقتَ من سبات دام مائة عام.

يان مارتل

القسم الأول

أقف في ركن شارع في مونتيري، منتظرة وصول الحافلة، وكل عضلات إرادتي تكبح رعب مواجهة اللحظة التي تمنيتها طويلاً. يُبقي الترقُّبُ والظهيرة الصيفية شفتيَّ جافتين، متحفّزتين خلال فواصل الدقائق العشر على مدى خمس ساعات من الانتظار.

لكن عينيها هما اللتان تقدَّمَتا خارجَ حشدِ النازلين المألوفين كي تطمئناني أن الحافلة لم تتقيأ كارثة: عيناها المريميتان، الناعمتان نعومة حديثي الولادة، واثقتان ثقة غير المبهور. وللحظة، كان يسعدني خلال تلك النظرة التخلي عن مستقبلي، وإرجاء معجزة تعليق الرمي لأجل غير مسمى. عيناها تغرقانني بالبراءة والدهشة.

هل كان من أجلها في النهاية، هي التي لم أتوقعها أو أتخيلها، أنْ تراكمت مثل كل تلك المصادفات المخاتِلة؟ ووراءها كان هو، مَن انتظرتُه طويلاً جداً، ومن طاردْتُه بشكل لا يطاق في أحلامي الليلية، يتعثر بالتذاكر والحقائب، ويتعثر في طريقه إلى الحدث الذي أحالتْه أصابعُ الترقّب الطويلِ إلى مجرَّد مِزَق.

في النهاية، كان كل شيء يدور حولها. نجلس في مقهى نشرب القهوة. يقص مغامراتهما، ويقول «كان الأمر هكذا، أليس كذلك يا عزيزتي؟»، «قمت بعمل جيد وقتها، أليس كذلك يا حبيبة قلبي؟»، وتبتسم هي في أرجاء المكان بسعادة وثقة مروعتين.

كيف يمكنها أن تمشي في الشوارع بهذه الهشاشة والجهل دون أن يتبعها بشر وكلاب وفواجع دائمة؟ لكنها، وقد استغرقتْ في كُروم إيمانها، محمية من أنظارهم، مثل برَكِ الماء في إيبينغ فورِست، أرى أنها تستطيع المشي عبر العالم الشهواني دون أن تتأذى إلا ممن تحبهم. ولكني أحبها وأرى صمتَها إعلان قداسة.

ثم نقود السيارة على امتداد ساحل كاليفورنيا نغني معاً، وأنا أُعْرض عنه تماماً من أجل راحة بالها فقط. يتلوّى الطريق البري حول الحواف التي صنعتْها الجبال والمنحدرات. يبلغ المحيط الهادئ بتموجاته الزرقاء أبهى صوره.

لماذا لا أقفز عن حافة هذا الجرف حيث أستلقي والسأم يعتريني من القمر؟ أعلم أن هذه الأيام لا تقدم لي سوى مصرعٍ مستقبلي. ليست أصابع البرد الزاحفة وحدها هي ما يثنيني عن المبادرة، ويسمح لي بقبول الأمل المخاتل بأنه قد يكون هناك بعض الحلول. مثل ماكبث، أتذكر باستمرار أنني مضيفتهم. إذاً، ففطور الغد لا دم المستقبل هو ما يفرض الإحجام عن الموت. الطبيعة، عاهرة أبدية، تصرف الانتباه بالحاضر الفوري. تتحوّل عيناي لهذه المغالطة، أرجع إلى سريري فوق العشب مدبب الأطراف.

وهكذا، خلال أيام الصيف، نجلس على شاطئ كاليفورنيا، نشرب القهوة على الدرجات الخشبية لأكواخنا.

في الوادي، كانت السيكويا والأوراق السميكة لشجرة الخروع تتنبّأ بالكارثةِ بجمالها العظيم، الذي قام بعظَمة على اللحاء. يتدفق الجدول فوق الصخور الخضراء إلى برك لم يلمسها إنسان قَطُّ ثم إلى قيعان الوديان ومنها إلى البحر.

لكن البلوط السام ينمو فوق الطريق وفي جميع أنحاء الضفاف، ومن المستحيل حتى الذهاب إلى الوادي المكلل بالرطوبة دون التعرض للتسمم. وفي وقت لاحق من العام، يفور باللون القرمزي، محذراً ومسجِّلاً الإصاباتِ القاتلةَ في الوقت ذاته.

تنحدر التلال بشدة بين الوديان، وتنقطع عند الجروف التي تعزل المحيط الهادئ. تتحول من الذهب إلى الفضة، وتتحول إلى أرجوانية وهائلة الحجم من مسافة بعيدة، ثم تتداعى في الأسفل على شكل انهيارات رملية.

تنمو حول المداخل دون رعاية أزهار ذات حجم مزدوج: الزنابق، والكبوسين في ضفة على امتداد النُّهَير، والورود، والغرنوقيات، والفوشيا، وزهرة القلب النازف، والأرطاسيا. يهدر البحر. ويتدفق الجدول بصوت عالٍ.

عندما تترك ثعالب الماء لَعِبَها تحت الجرف، تبدو الطحالب البحرية في لفائف غزلية كأنها تعلّق المحيط الهادئ في مكانه. هناك أفاع مجلجلة، وعناكب الأرملة، وضباب يرتفع من الأسفل. ولكن النهارات لا تخلف إلا ذكرى الشمس والزهور.

النهار يضلل، ولكن لا أحد في الليل آمنٌ من الهلوسات. كلّ الأساطير هنا عن الثأر والانتحار، عن البصيرة العجيبة والمعرفة الخارقة للطبيعة. قبل أن يشيد العمالُ السجناءُ الطريقَ، دفعت الوحدة النساء إلى القفز في البحر. رويت حكايات عن المحكومين: كيف جن جنون بعضهم على هذا الساحل، بينما افتُتِنَ آخرون به، وعادوا عندما أطلق سراحهم للزواج من فتيات المنطقة.

النهارات الطويلة تجتذب كلَّ الأفكار بعيداً، ونكذب مثل السحالي في الشمس، ونؤجل حيواتنا إلى أجل غير مسمى. ولكن بالقرب من بركة الاستحمام أو على تلال الشاطئ، تتربّص *البداية* بشكل غير مريح

على أطراف الدائرة، مثل شخص غير مألوف يمكن بتجاهله أن نبقيه بعيداً. إنّ الصمت ذاته، والإعراض عن أي حميمية بيننا، عندما كان، عندما كان هو مجرد كلمة، كانا قادرين على التسبب ليالٍ من الأرَق وارتعاش الإشارات، كان الأمر الأكثر خطورة.

يزداد تباعدنا الظاهري قوة. أجلس بشكل مبهَم وأتحدث، أرى الادّعاء البشري، أو أشعر بنفسي ممتلئة بالبهجة لأن هناك رقة بينه وبينها، أو حتى أشعر بالضيق لأنه يسمح لها بالقيام بالكثير من العمل ويجلس باسترخاء بينما هي تقطع الخشب للموقد.

لكنه لا يمر قربي أبداً دون أن تتيقظ كل قطرة من دمي. قد يسوّغ عقلي أن التوتر يعني مجرَّدَ الحياد، لكن قلبي يعلم أنه لم يوجد قط حيادٌ حقيقي مليء بالشغف. ذات يوم على الطريق احتكَّ بصدري دون قصد، وفكرت، هل هذا الإزهار يزعجه؟ مضيتُ إلى أشجار السيكويا لأجلس وحيدة أتّقِدُ غضباً، لأنني ممهورة بأنوثة صارخة، ومعرضة لإذلال أسوأ من إذلال فينوس مع أدونيس، فقط بسبب جنسي الآنيّ لكن المزدهي.

واحسرتاه، أعلمُ أنه خنوثيّ يرنو حبه إلى الأعلى من خلال شجرة تفاح بوجه ذهبي ضائع الملامح. أثناء سفرنا بالسيارة على الطريق في المساء، نتحدث في أمور عادية كأننا في نقاش إذاعيّ، يقول لي، (صبي ذو عينين خضراوين ورموش طويلة، لم أره من قبل، صحبني إلى الجزء الخلفي من المطبعة ومارس معي الحب، وعلى مدى أسبوعين كنتُ أجول الجوارَ متذكراً الأرقام على قبعات جُباةِ الحافلات).

«على المرء أن يحب الكائنات بغض النظر عن جنسها»، أجيب، لكني أنسحب إلى الظلام بشكلي الجامح، مستاءة من جسدي الذي لا يمكن أن يتحوّر إلى صبي مطبعة بإبطين يشبهان كؤوس الأزهار.

ثم تمر الأيام دون هذا القدر الكبير من تبادل المجازات. ويذوى

لساني في حلقي بسبب الصمت المقيت، وتدفعني الأقمار التي تشرق وتغيب دون أن تُمَسَّ، والشموس التي تذيب المحيط الهادئ بلا جدوى إلى البكاء وإلى حافّة سهري في نهاية شبه الجزيرة. لا ألتمس *البداية*، التي سوف يرشرش مجيئُها عالَمنا بالدماء حتماً، لكنني أندبُ هدْريَ حياةً كهذه هي في متناولي.

يلُوْح جانب وجهه المائل بطريقة جانبية على نافذة السيارة كالرسم البياني الشاذ لعذابي، خالياً من الرحمة كعالم رياضيات، يغمز مما يلازم كلَّ قراراتي الصائبة. لا دواء يمكن الحصول عليه من الأعشاب المجففة في أيّ تل طبيعي، فعندما أرتقي تلك المسالك الصاعدة، تتآمر العرائش السفلية لتحريض مكيدتي، ويغرز البلوط السام وسوستَه تحت قدمي.

من المنعطَف الذي ينعرج عندَه التل مبتعداً عن البحر، ويدخل في غموض ورطوبة الأشياء المحظورة، أقف بلا مبالاة لأتفحص أدوات وصورة مصيري. إنها عملية بطيئة الحركة لمقصلة أثناء عملها، وأرى بصفاء أن ليس من معجزة يمكنها تجنب الميتات الوشيكة. أعرفُ، وأنا أقدِّرُ الوقت، برصانة فيما يتعلق بالمظهر، لكنني منفصلة كما إحصائيّ يعدُّ آلاف القتلى.

عندما ينفرش ظله الناعم، الذي يأتي في الليل واخزاً بكل عتاد المعصية، مهيمناً بكل جثامته على زجاج النافذة، وأرقبه كأنّه مقصورة مسرح، أنا التي أردد الذبذبات في الظلام. أقسم بمنعتي، وبلا رحمة أُحصي نقائصَه، وبازدراء رفيع، أتساءل من ذا الذي قد وقع في الورطة.

لكن هذا الظل الجثوم يتجاوز قمري الوحيد، بل يتجاوز خرابي: فيه الانزلاق البريء للجيل القادم، الذي يأتي في ليلة واحدة من المتعة، ويغادر مرعى الحلابات المتفجعات عندما يقضي وِطْرَه.

أيضاً، إذ أُهَوِّنُ عليَّ من وقع التفصيل بأسْره، لا أرى وجه حبيب يثير

غُنجي أو تحدّيَّ، إنما أرى الخلاصةَ الرقيقة لصبيّةٍ صغيرة. وهذا، رغم أنه صادم، يتيح لي أن أفهم، فتُسْتَنهض نفسي بعزم كالكوبرا، خارج مقصورتي، كي أستمرَّ في التحكّم بالأمر.

طبَعَ قبلةً على جبيني أثناء القيادة على امتداد الساحل في المساء، والآن، أينما ذهبتُ، مثل سيف دموقليس المسلط، هذه القبلة العظيمة المحرمة معلقة فوق رأسي المنكوب. أمسك بيدي بين المقعدين الأماميين المتهالكين في سيارة الفورد، الجو مظلم، وكنت أنظر في الاتجاه الآخر، لكن هذه اليد تلقي في كل مكان بظل أخطبوط لا أستطيع الإفلات منه أبداً. الرقة الهائلة لتلك اللحظة تكتم أنفاسي تحتها؛ طوال الليل، داست كائنات القنطور ورمحت فوق قلبي: قد وصل السمُّ دمي. أقف على حافة الجرف، لكن المستقبل قد حُسم بالفعل.

الأمر مقدّر ومكتوب. لا مَحِيْص. أطفو بين الأمواج وتتغلغل الأعشاب البحرية في شعري، أو أتهالك وأتكسّرُ على الصخور المنيعة، لا أستطيع التراجعَ عن الحدث الذي لم تكن له أية بدائل. يا ‹دافني› المحظوظة، ها أنت أكثر سكونيةً ويناعةً من أن تُعرضي عن لمسة إله! سيرينكس المحظوظة، وقد اخترتِ أسطورة بدلاً عن كثير الدم المُراق! بالنسبة إليّ لم يكن هناك خيار. لم يكن هناك مفترق طرق على الإطلاق.

أغبط الصقر لأنه يستطيع النأيَ بعيداً عن العالم، أو أتبع بحسد شغوف النورس وهو ينقض على صيدٍ قبل شُحٍّ محتمل. يهدل الحمام الحزين دون رحمة بإدانتي في الغابات. إنهم الجلادون ينطقون بإدانتي بلغة الحب اللائقة. أصعد الغيوم المتملّكة الرابضة فوق البحر، لكن السم ينتشر. عارية أنتظر...

أنا مجتاحة، كثيفة الأدغال في سريري، أنا موبوءة بمعرض وحوشٍ من الرغبات: قلبي أكلتْه حمامة، قطة تعرِّشُ في كهفي الجنسي، كلاب صيد في رأسي تنصاع لسيّد السوط الذي لا يصرخ إلا بالخراب بينما تختبر الساعات تحملي صنوفَ العذاب المتراكم. وإن بكيتُ من تراه يسمعني بين طبقات الملائكة؟

نائيةٌ أنا، نائيةٌ للغاية عن جزيرة الأيام تلك، حيث راقبتُ ذات يوم زهرة تنمو، وأحصيت خطوات الشمس، وأطعمتُ، إن لم تخنّي ذاكرتي، ذلك الحيوان المبتسم في ساعته المحددة. أنا منكوبة بجراح لها عيون ترى العالم كله حزيناً، وسيكون أبداً كذلك، شاملاً، لا أمل بشفائه، وللجراح أفواه مرعبة معلقة في سماء من الدم.

كيف يمكنني أن أكون أليفة؟ كيف أجد راحة الطيور في عش الحياة اليومية؟ لا توفر الضرورة جناحاً مخملياً يمكن الهروب به. أنا مخرَّمَةٌ حقاً وحتى الموت ببذار الحب.

ثم تنحني في البركة وشعرها الداكن الرطب يتساقط كالشجن، كالنعمة، كثياب الحداد الرحيمة. تجلس مثل الحورية في البركة في وقت متأخر من بعد الظهر، نحولها المثير للشفقة مغطى بحب رقيق وموقِنٍ وعنيد كالطيور التي تعيد بناء أعشاشها المنتهكة باستمرار. عندما تضم يديها بسعادة لدى سماع لحن تحبه، يكون الأمر مؤثراً أكثر مما أستطيع تحمّله. إنها البريء الذي يعطي دائماً. إنها إلهة كل الأشياء التي تدمرها حيوية الحياة. لماذا ذراعاها فارغتان للغاية؟

تتأوه في الليل مع صوت الجدول أسفل نافذتي، باحثة عن الطفل الذي شعرت بلمسته ذات مرة ولم تستطع نسيانه قط: الطفل الذي امتثل لقوانين الحياة أكثر مما فعلتْ. لكنها في النهار تمتثل لصوت الحب كما يطيع المكروبون إلههم، وتقتفي خطوةَ الأمل الخفيفة التي لا يعرفها إلا

الساذجون والقديسون. لكتفيها أبداً وضعية الحِداد، وثدياها الرقيقان مثيران للشفقة كمزاراتٍ للعذراء تعرضتْ للسلب.

كيف يمكنني التحدث معها؟ كيف يمكنني مواساتها؟ كيف يمكنني أن أشرح لها أكثر مما أستطيع الشرح للزهور التي أسحقها بقدمي عندما أسير في الحقل؟ هو أيضاً يحدب عليها بوضعية الاهتمام المفرط. هل يمكنه أن يسمع قلبه وهو يستمع لرقة أحاسيسها؟ وهل هناك طريقة ما لتفادي الإساءة إلى حَمَلِ الله؟

باغتني وأنا أستحم تحت الشلال وأعطاني ما لا أستطع ردَّه كما لا تستطيع الأرض أن تردَّ المطر. ثم قبلني ونزل إلى كوخه.

اغفرْ لي، صليتُ عند شجر السيكويا الكاتدرائي، وسامحني إذا كان الأمر خطيئة. لكن الطحلبَ الغضّ عابَثَني، والماءَ فوق قدمي والسراخس وافقتني بتحبب: عزيزتي، عزيزتي، استلقي معنا الآن لأنك أنت أيضاً الأرض التي ليس لشيءٍ أن يزرعها إلا الحب.

واستلقيتُ على إبر السيكويا وبدا أنني أتدفق عبر الوادي مع رعد وارتباك الجدول، بسعادة، مثلها مثل الولادة، يمكنها تجاهل الدم والتمزق. فالطبيعة لا وقت لها للحداد، مستغرقة في العالم المتحول، وسوف تحقق، مهما عانت من دمار، وضمن طقوس سرية، كل نبوءتها المستحَقة.

فسّر الحمام والحماض البري البرهان برقة فأرشدوني في عودتي. عندما خرجت من الغابة إلى التل، كانت إبر الصنوبر في شعري كإكليل الزفاف، وابتسم البحر والسماء والتلال الذهبية برفق. جوبيتر و«ليدا» كانا معاً، ولا شيء الآن يمكنه تجنب حروب طروادة. ستولد كل الأساطير، لكن من سيفرّ وهو على قيد الحياة؟

إذاً، ما الذي يمكن أن يعرفه الحماض البري وحمَام الحِداد، اللذان يتعاملان مع الخالدين فحسب، عن الاختلاط الاجتماعي الشائك للحياة الإنسانية؟ وكيف يضغط ثقل ساعات الانتظار، الصامتة والهامدة، على الرأس بقوة خانقة؟ أبسط المجاملات اليومية عذاب، وهناك حاجة إلى تأثير شمشون لتجنب النظرة التي تشدني كالجاذبية.

كعذر لوجودنا معاً، نجلس إلى الآلة الكاتبة، نتظاهر بالحاجة إلى التعاون في أمر ضروري. لديه كتاب يجب كتابته، لكن الكلمات التي أحاول إخراجها بالقوة تموت في الهواء وتذوب إلى قبلاتٍ كيمياؤُها أشدّ فتكاً إنْ لم تصل وجهتَها. لا يمكن أن تكون أصابعي جريئة عند لمس آلة وثيقة الارتباط به. تنهض الآلة مثل معبد للحب بين الأوراق التي لا ننهيها أبداً، وإذا استيقظت في الليل ورأيت هيكلَها في الظلام، أُشحن بذكريات خطيرة القربى.

لم يعد بالإمكان كتمان فشل المماطلات الماضية. إنها معلَّقة وناضجة بانتظار أن تنفجر مع مولد أية لحظة. الآلة الكاتبة مذنبة بالحب ومكلَّلة بالعار، تحدثني بصوت عالٍ وأخشى أن تعرض بذاءتها أمام الزوار الطارئين.

كم باتتِ الحياة ساكنة، والساعات مطوَّلة بشكل لا يطاق. عندما نجلس على عشب الجرف الذهبي، تصرّ الشمس ما بيننا على حلٍّ نسعى إليه عبثاً، ولكننا نشعر بإلحاحه بشكل لا يطاق. لم أكن أحب الموت من قبل، ولم أشعر بالامتنان لأن الصخور أدناه يمكن أن تَعِد بموت مؤكد. لكن فكرة الموت العنيف أصبحت الآن عملاً يلفّه حزن جذاب، وتُعْرَض لدى أدنى مداراة. لأنه لا جمال في نكران الحب، إلا بالموت ربّما، فما هو السبيل إلى الحب؟

إن نكران الحب، وخداعه بخِسّة من خلال التظاهر بأن ما لا يكتمل

يبقى أبدياً، أو أن الحب المتسامي يصل إلى أعلى مستويات الحب السماوي، هو أمر منفّر، مثلما هو منفّر وجه المنافق عندما يوضع قريباً جداً من الحقيقة. بعيداً عن مركز العالم، جميع العوالم، قد أكون مخدوعة على أكمل وجه، لكن هل يمكنني رؤية ضوء عود ثقاب بينما أحترق في أحضان الشمس؟

لا، يا مُناصِريَّ، يا ملائكتي ذوي العيون السادية، هذه بداية حياتي، أو نهايتها. لذا أميل موافقة على طاولة المقهى، وأتنازل عن خمسين عاماً بابتسامة سهلة. لكن ضمانة حبي لم يخَفْ من أي احتمال يمكن أن تستحضره الحصافة أو الرأفة، وكل ما يمكننا فعله في النهاية هو الجلوس إلى الطاولة التي تتقاطع أيدينا فوقها، والاستماع إلى نغمات الورلتزر، والحب كبير وبسيط بيننا، ولا شيء آخر يُقال.

وفي كلّ ساعة، لدى أدنى ضوضاء، أبدأ، أقف على استعداد لأشعر بسقف الكهف يسقط على رأسي، ورعد القصاص الإلهي يعلن حدود قدرته على التحمّل.

هي تمشي بخفة، مثل الطفلة التي تلامس أقدامُها الراقصة متفجراتٍ عملاقةً. هي لا تعرف شيئاً، ولكن كطيور الخريف تشعر بالنذير في الهواء. حركاتها متوترة، ثمة تيارات في كل غرفة، ولكنها أقلّ حكمة من الطيور التي ترسلها إشارات صغيرة في رحلات تمتد لثلاثة آلاف ميل، تنظر فقط بشكل غامض إلى المحيط الهادئ، وتجد أنه من الغريب أن الجنة، رغم كل شيء، لا تحتوي شاطئاً كاليفورنياً.

تعلمتُ التدخين لأنني أحتاج إلى ما أتمسك به. لا أجرؤ على أن أكون دون لفافة تبغ في يدي. إذا كان يجب أن أنظر في الاتجاه الآخر

عندما تدقّ ساعة الهلاك، فكيف أتجنب التحول إلى حجر ما لم أتذكر شيئاً أفعله يعيدني إلى بساطة **الحياة** اليومية وأمانها؟

إنها قابَ قوسين أو أدنى منّي. يجذب مغناطيسُ إصبعها القريبة كلَّ شعرة من جسدي، وقشعريرةُ وصولها تفكك القبلات، وتبدد الأمنيات في الهواء المخلخِل. الأذرع المبللة لشجرة الخروع في الليل تلامسني فأصرخ وفي ظني أنني تورطتُ بها أخيراً. تجولُ الغيوم السماء ثقيلةً وأنبوبية الشكل. تحتشد فأصاب بالذعر لرؤيتها وقد شكلتْ قوسَ قزح أسودَ طويلاً بادئةً بالجبل لتختفي فوق البحر. الأمر قاب قوسين أو أدنى. لا شيء نفعله سوى المكوث وتلقي غضب الله.

القسم الثاني

أيها الرب، انزل عن شجرة الأوكالبتوس خارج نافذتي، وقلْ لي مَن سيغرق في كثير الدم.

رأيت وجهها يخرج من الغرنوقيات المحتضرة. وقد تيبّس بالدموع التي كان ينبغي أن تطمس عذابها الطويل. انكمش جسدها منتظراً الجرح الذي تأرجح فوقها في عطالة أبدية.

لكن عينيها اخترقتا كلَّ الأستار التي كانت تحمي مخيلتي من المعرفة المدمِّرة، لتنزفني أيضاً في بِرْكة الولادة الكارثية هذه.

أليس هناك معْبَر آخر لخلاصي إلا باستشهادها؟ أبلغتْ عيناي في البداية ما رأتْه دون أن تجودا بمعنىً للمشهد. لم يكن لديّ ثمة اتصال مع البؤس. بقطع كل أسلاك الوعي، كنتُ أؤدي وظيفتي ككائن عادي، وتجوّلتُ في الخراب دون أن ألحظَ وجودَه.

لكن من يمكن أن يكون برهاناً في مواجهة ذلك الشبح المستقبلي بين الغرنوقيات، والذي يحمل الرأفةَ كقنبلة موقوتة في هيئة المكلوم؟ أي نسيان يمكن أن تبتكره الطبيعة، أو أي تسويغٍ يمكنك أيها الإله أن تختلقه لتهدئة هذه الرأفة التي هي لصُّ طاقتي على التحمّل؟

على جروحها أفرشُ ملاءاتِ عشقي، لكن من سيحظى بأي كبرياء في حمرة الزفاف، وهو ينزّ بين أفخاذ الحب الذي ينهض كتمثال مهول، لكن مَن هو الذي لا تتعدى مشكلتُه المنيَّ البارد للحِداد؟

ليس الرب، إنما الخفافيش وعنكبوت ينسج إثميَ، ما تحافظ على مواعيدها معي، والعار يتزاوج مع كل ذبابة منزلية في أيلول. يتردد في غرفتي صدى الصرخات التي لم تطلقها قط، وتحت أرضيتي تتهيّأ عرائش الندم للاندفاع خارجَ الرطوبة. بلا كللٍ يتقطّر صرصارُ الليل الذكرى في أذني، لئلا أفقدَ عنصراً ما من مخزون القسوة الشيطاني.

الفخ مُطبَق، وأنا في الفخ.

لكن لا لأجل أن أتحلل من ألمي الذي أتوق إليه حين أدعو الرب أن يفهم لغتي الخَرِبة وأن يَنزل لحظةً للجلوس على مصطبتي المكسورة. هل ستكون هناك ولادة من كل هذه الدماء أم إنّ الموت ينتزع ثمنه البخس فقط؟ هل هناك رضيع يكافح في الرحم المثلث؟

أنا عمياء لكن الدم لا الحب هو ما أعمى عيني. الحب أشرعَ السلاح ووجّه جريمتي، ثبّت أطرافي، مثل رجل غارق بآخر قارب نجاة في الأفق، قام وجعُها من البحر ليصرخ في طلب *النجدة*، والآن فوق ذلك الوجه الثاقب تَرَاكَبَ قناعُ رغبتي المضبّبُ.

قد أقفلتُ بابي، لكن الرعب متربّص في الخارج. شجر الأوكالبتوس يضرب النافذة، وأسمع كل أوروبا المنكوبة تنوح من الجدول أدناه. تظهر الأشباح الحاقدة على الألواح السوداء، غير مكترثة بصلبان الإطار الباهتة، لأن المسيح يسير الآن فوق مياه كوكب آخر، والتاريخ وحده ينزف من جروحه القديمة.

تتبدد كل الصرخات في فوضى العاصفة. سعال الأغنام في تلال دورست المفقودة، والجنود الذين يختنقون بالغاز، وطفل السنتين المصاب بالخناق، يذهبون في سيل كارثي واحدٍ يُسمع في اندفاع

الجدول، ويُسمع حتى تحت الدعسات عديمة الإحساس التي يمكن أن تحطم قلب العاهرة.

تمسك أمريكا بالمحيط الهادئ بمخالب كاليفورنيا، وهي الآن تحشد أصواتها باستغاثة هوجاء. تزأر مثل نياغارا. تهزّ التلال الاصطناعية. انفلتتْ رمال الكارثة وكل صدْرٍ محكومٌ بالهلاك.

لكن قبائل زيز الحصاد المحتال تأتي لتُلقي *«الكلّ على ما يرام»* في أذن الرب، الذي يقيس الوقت بسخاء، ويهدهد القملُ صغارَه تحت ألواح الخشب. يقبع القلق ساكناً، بينما تمارس عينُه التفافاتها الشاسعة واسعة فوق عوالم بعيدة وعوالم أخرى.

ثم أُرغم خيلائي على الوقوف فوق الجرف وأترك الذاتَ تتأمل الذاتَ، وهما ما لا يمكن لَـمُّهما إلا بالانتحار.

واقفة على ارتفاع ألف قدم فوق البحر، كيف يبدو انعكاسي العاشق الآن وأسماك الموت تسبح في شَعْره؟ اللآلئ والفقاعات تطفو من قاع المحيط، ما يجعله حبلاً أجمل للموت، آخر زخرفة من حب الذات، يورّد الرؤية المخيفة. عندما نلتقي، وأمسك تلك المخادِعة بين ذراعي، فإن اندماجنا سوف يسمم البحر. ولكن ليس هذه الليلة، إذ لا قمرَ.

مُهدِّدو الحياة مرعبون بما فيه الكفاية، وهي التي آذيتُها أنا، والتي كانت مراقَبةُ عذابِها عقوبتي، تستلقي وهي تلهث، لكنها لا تزال حية، على اليابسة. مرتعدة كجبان، لا أجرؤ على إمساك الحياة أو الموت من راحةِ الكف المتغوِّلة التي تمدّ بهما إليّ.

تحت شجرة السيكويا رُكِنَ قبري، وخدعتُ حبي الحقيقي كي يستلقي فيه. شقَّ جدولُ قُبلتِنا مجرىً مائياً حول العالم، حيث أبحر

الحب كلاجئ في السفينة الأخيرة. صنع شَعري كفناً، وبقينا مع ذئاب البراري في هدنة بينما كنا نكتب شِيفراتنا بتشريح أجسامنا. أعلنت الرياح الانتصار، وبدت أعمدتنا الفقارية مرهقة، وتأوهتْ عظامنا كالأشجار المعمرة، لكن ابتسامة كنسيج العنكبوت تم إحكامها على فم كهف القدر.

سيكون الخوف ثعلباً رهيباً في أعضائي الحيوية تحت سترة المسلك.

غرِّدْ أيها الكناري في عاصفة الرعد، وأثبت كبرياءك الصفراء. أعطني سبباً للشجاعة أو طريقة لأن أكون شجاعة. ولكن لا شيء ملموساً يأتي لإنقاذ عقلي المحاصر، ولا يمكنني فك شرْعَةِ الأوكاليبتوس التي تنقرُ على سقفي.

أنا خائفة وواهنة أمام خصوم الرب، والربّ خارجَ مرمى السمع. عليّ أن أنسج أشباحاً خيرة من أملي لأواجه الحشود عند نافذتي. إذا رآني أولئك الذين ينظرون للداخل وأنا أنزل لتحصين الباب، فسيعرفون أكثر مما يجب وسيحتشدون لقهري.

فيلسوف البرشمان لا يتداول مع الليل، ولا يملك تصوراً عن ثمن الحب. بدوائر أدخنةِ الفكر يحاول صدَّ الضباب، وبالجناسات الناقصة يحاول هزيمة تشريح الجسم. أقف حاملة أسلحته بلا جدوى، على الرغم من أن أعشاب نيكوتينه تهدئني.

أيها القمر، أيها القمر، اعْلُ في السماء لتكون تذكارَ الطمأنينةِ والساعةِ التي كنتُ فيها شجاعة.

غير أن الزهور الرقيقة، القادرة على الموت دون مراسم، تذكرني بحزنها الذي أغرقَت دموعُه كلَّ الأشباح، وعلى الرغم من أنني كنت

أَمُوْرُ بالعذاب المبرح على التلِّ الأشد عصفاً، فإن المزيد من الملائكة تبكي لأجلها، هي التي يسري حبها المحطم في كلّ محيطات العالم.

ما الذي كانت تضْمرُه رمزاً لها، وكيف حمت نفسها من الذعر عندما تَبِعَتْ سفينتُها عاصفةً عمْرُها شهر وصارعِتِ السرطانَ الذي كان مرارتَها العارفة الداخلية على طفلها الضائع؟ قد حطّمتُ قلبَها مثل بيضة (أبو الحناء)، وها حطامُه يبلغُ أفقَها المحدود.

ما الثمن الذي تطلبه يا جبرائيل، يا ميكائيل لقاءَ الجناح المُنقذ؟ أية بَكَرة من رجل متهوّر رفعتك في الوقت العصيب حتى أطلقت ضحكة متبلّدة، واغتذيتِ على الشمس وحْدها؟ أكانت تلك مكافأتَك على المغالبَة الناجزة مع يأس كهذا؟

لا معنى للمُتون المدوَّنة، إنها خداع العدو. زلّتْ قدمي فرقصت فوق مَن تقطّعتْ بهمُ السّبُلُ، ولم تذرفْ أي عزاء لقاءَ مجزرتي. لم يكن ألمي يكفي ليخفف ذنبي. قلْ لي كيف أكفِّر، يا حمامة في شجرة الأوكالبتوس، يا من تتحدث بصوت الرعد عن انتقام المستقبل. قل لي إنَّ هذا الدَّفْقَ هو نذير أُعجوبتي.

قلبي هو مقوِّضُ نفسَه. إنه يدْحَرُ إيقاعَ الحقيقةِ السَّمُوم.

يكنس جناحٌ رطبٌ الليلَ الرّاعشَ، والصباح ينفث موجَزاً بارداً في ذهني الذي ينتظر الهواجس. تضطلع الكروم بأجوائها الاجتماعية، وتزرع الأخضر بأنامل أطفال. تنتصب شجرة الأوكالبتوس العقيمةُ خائرةَ القوى.

لكن خافتةً كالأمل، وحاسمة كالموت، تسطعُ عنقاء حبي المحتملة مثل عمود طوطميّ، في الصباح، وأعلى السماء، تتنفس مثل عامل ينطلق إلى عمله.

القسم الثالث

يا لماء الحب الذي يفيض على كلّ شيء، إذ لا تقع العين على شيءٍ ليس مغموراً به. لا توجد وجهة قد يتخذها العالم يَعجزُ الحب في عيني عن جعلها رمزاً للحب. حتى الهندسة الدقيقة ليده، عندما أتمعّن فيه، تحيلني ماءً فأجري في مسيل من الحب.

كل شيء يتدفق مثل نهر المسيسيبي فوق أرض مقفرة تشرب دون ارتواء، وتعزّز السائلَ شلالاتٌ من الامتنان تطلق صوت تسبيحٍ يصمّ كل المتشككين إلى الأبد؛ لتفجر طبلة آذانهم المخزية بهدير البرهان، وبصوت أعلى من القنابل أو الصراخ أو صوت الندم الداخلي. لا يمكن لكل تيارات الدم السامة التي أرقْتُها أن تؤثر على فيوضات الحب هذه.

ولكن كيف لي أن أمارس المهمات اليومية الضرورية، في حين أن هذا الاندماج الشديد يحول العالم إلى ماء؟

يغمر الفيضان كل ما جهّزْتُه لجنس مبتذل. أحدّق دون فهم في أبسط سؤال من شخص غريب، أقف كما لو كنت مسحورة، نصف مبتسمة، كحمقاء، وأنا أشعر بهذا السائل الناري يتقطّر من عيني.

أنا ممسوسة بالحب ولا خيارات أُخرى أمامي.

لحظةَ قعقعت سيارة الفورد عند الباب، متأخراً خمس دقائق

(خمس سنوات)، وعبرَ العشب تحت أشجار الفلفل، وقفتُ خلف الستائر الرقيقة، عاجزة عن التحرك للقائه، أو التحدث، وكأنني تحولتُ إلى سائل سيغزو كل ثغرة فيه لحظةَ يفتح الباب. كان الهدف الوحيد المنشود من الطائر الجديد، كلَّ فمِه وبملء إرادته، أن أُغمض عينيَّ وأرتجف، مترقِّبةً نعيمَ اللمسة الحقيقية.

عندما نستلقي تحت الشمس قرب بركة السباحة، يخرج من بين أجمات البامبو مثل أرض تنبثق من الهيولى، الشواش. ولكني أنا الأرض، وهو ‹الوجه الذي يرفُّ عليه روحُ الله›. هو القمر فوق المدّ والجزْر، هو الندى، المطر، وكل البذور وعسل الحب. عظامي مسحوقة مثل شجر البامبو. أنا الأرض التي ينمو فيها النبات، ولكن عندما تتبرعم سأكون أيضاً ‹إلهاً›.

وثمة الكثير مما ينتظرني، فجأة أصبحتُ في غِنَىً عميم، ولم أفعل شيئاً لأستحق ذلك، لأن أكون مثقلة للغاية. كل هذا بعد صحراء كهذه. كل هذا بعد أن تعلمت أن أقول، أنا لا شيء، ولا أستحق شيئاً.

تُسقط أشجار الصنوبر السميكة مخاريطَ كرويةً. أشجار النخيل المتغضنة، وسراويلها تنسَلِتُ على جذوعها تقول،

لقد حدث الأمر، وصلتِ المعجزةُ، كل شيء يبدأ اليوم، كل شيء تلمسينه يولد؛ القمر الجديد تصاحبه نجمتان هائلتان؛ اليوم المشمس يتخافتُ متوهجاً إلى نشوة؛ كل أدوات الوجود، كل رفاقي الحزانى خلال الأعوام العشرين المنصرمة، الأواني والمقالي في مطبخ السيدة ‹وارْتلْ›، شرائط الشوارع، الغرنوقيات الذابلة، أرجل الأطفال النحيلة، كل العالم يحثني على الفرح، يقفز إلي بحماس، ينال أخيراً ولادته.

***

عندما نجتثُّ نفسينا من الليل وندخل المطبخ، تقول السيدة وارْتلْ، «الغرام، أليس كذلك؟»، لكنها تبتسم، تدير رأسها، وعندما نقبل بعضنا خلف ظهرها ونحن نساعدها في تجفيف الأطباق، تقول، «أوه، يا عصفورَي الحب، اذهبا إلى الخارج مرة أخرى!»

ماذا سيحدث؟ لا شيء. لأن كلّ شيء قد حدث. الوقت كله هو الآن، ولا يمكن للوقت أن يكون أفضل. لا شيء يمكن أن يكون أكثر آنية من الآن، وقبل هذا لم يكن هناك من شيء. لا توجد حقائق ثانوية في الحياة، هناك حقيقة واحدة هائلة فقط.

يمكننا أن نشرك العالم في حبنا، ولا يمكن لأية مضايقات أن تعرقله، ولا حتى الحسد.

السيد وارتل، جالساً على الأريكة في وقت متأخر من الليل، يقول، بمسحة قانونية، «إذاً أفهم منك أن الحب موجود؟» أتكئ على الوسادة، مرهقة من ساعات فراقٍ قليلة، لكنني أتنهد، «نعم، أوه نعم» وبعد ذلك، كما لو كان يصف عوالم أخرى، ضئيلة، وتافهة لدرجة تجعلني أخنقها بالشفقة، يصف مكائده، وهو يلفظ الكلمة التي كانت في البداية.

لكن هدير بحاري الداخلية، وبهجة هذه الولادة الكارثية للحب بداخلي، لا يمكنها سماع ما يقوله بوضوح. إن الرّدَّ هو بمنزلة إيقاظ نائم بعمق يتوق لمتابعة نومه. أبتسم، ولكني في نشوة، لا حقيقة إلا الحب.

لا أستطيع أن أسمع خلف كلماته الخفية بداية عدائية العالم: كراهية العادي لكل المعجزات. كل ما أريده هو أن يرحل الجميع ويتركوا لي ألف حياة أتأمل فيها، لأتأمل فقط، حالةَ الاكتمال هذه.

كنتُ مُهانَةً لزمن طويل. كان *المعنى* يرفرف فوق رأسي، أبداً بعيد المنال. وقد استقر بي الآن. اخترق مركز الدائرة. أنا أحب، أحب، أحب- ولكنه هو أيضاً كل الأشياء: الليل، والصباح المتجدد، وبنت

القنصل والأرطاسيا الطويلة، وأشجار الليمون، ونخيل المناطق السكنية، والفواكه والخضروات في صفوف رائعة، والطيور بين أشجار الفلفل الوردي، الشمس على بركة السباحة.

لا متّسَع للرأفة، على أي شيء. بقلب نازف عليَّ أن ألقى فقط النشوةَ في ترَفِ الأحمر.

مَـرَّةً تواريت محزونةً في الشوارع المعتمة، أطـارد بألم هذا المجهول، متمنية المرور دون أن يلاحظني أحد بثوبي الباهت وحذائي غير المتوازن ذي الكعب العالي، متمنية في سري أن أصادفه. لكني كنت خائفة، كنت خجولة، ولم أكن أؤمن، لقد تمنيت. اعتقدتُ أنه سيكون مثل طائر في اليد، وليس بحراً حَرُوناً يعاملني كحطام سفينة.

لكنني صرت جزءاً من الأرض: أنا واحدة من أمواجها تعلو وتفيض. أنا الآن على نفس تناغم الأشجار، والطيور الطنانة، والسماء، والفواكه، والخضروات في صفوفها. أنا كلّ أو أحد هؤلاء. أستطيع التحوّرَ كما أشاء.

هل تحتاج إلى بعض الفرح أو الحب؟ هل أنت أوراق موحلة في ساحة مهجورة؟ هل أنت منتبَذٌ أو تشعر بالبرد أو جائع أو مشلول أو أعمى؟ لدي ملءُ راحاتٍ وراحاتٍ لك، وما يفيض!

اجعل منها جوارب للنوم، وأكواب شاي، ووسائد لدرء البرد، لأن كهرباءها دفءٌ دائم، ويمكن أن تعدي كل شيء، وتبني عالماً جديداً وفاتناً بلمسة واحدة.

هذا هو *الحاضر*. هذا هو المكان الذي قادتْ إليه كل الطرق. ما هي مشاكل العالم وأحزانه وأخطاؤه؟ كأنني في البحر، كأنني مستَغْلَقةٌ وهائمة كما اليوم الأول الذي تعرفتُ فيه إلى علم الجبر.

لا توجد مشاكل ولا أحزان ولا أخطاء: إنهم يشاركون في الأغنية

الفطرية التي يغنيها كل شيء. هذه هي حالة الملائكة الذين يقضون ساعاتهم في تسبيح الرب فقط. الاضطجاع وتذوّق اللذائذ يكفي من الحياة. إنه يكفي.

حتى في المقاهي والفنادق العابرة، أو في كآبة الحانات، ترَنُّمُ بنغ كروسبي من صندوق الموسيقى، وقعقعة الساقي للكؤوس، تحقق هوية مثالية، نوتة طوّافة عالية لنكهتها الخاصة، تجعلني دامعة بامتنان لالتقاطها.

ومجرد يده تحت تلك الطاولات المتهالكة، أو عندما يقودني عبر حقول محصودة، تجعل سعادتي فيّاضةً كالمحيط، ودافئة وحميمة كالرحم.

عندما رأيت حشداً من القطط تتجمع عند محطة قطار لتتغذى على رأس سمكة ملقى قرب السكة، شعرت أن فرط مشاعري هو ما يغذي حتى المشردين واللقطاء. لا يوجد عدد من الثكالى أو الجرحى لا يمكنني أن أواسيهم، وأولئك الملايين الخمسة الذين يجرون أقدامهم، وأحزمتهم، وأطفالهم ببطونهم المنتفخة، في جميع أنحاء أوروبا، ليسوا كثيرين أو مظلومين لدرجة تمنعني أن أقول، هاكُمْ عالمي المليء بالأمل، يمكنني توفير عالم كامل لكل شخص، مثل سيدة غنية توزع في عيد الميلاد أكياس الحلوى على الأطفال الفقراء.

يمكنني أن أضغط صحراء موهافي بأكملها في كلمة واحدة من الإلهام، أو مناداة أمريكا بأكملها لتلبي نزواتي، مثل النادل الواقف لأخذ طلبي. هاذيةٌ أنا بالقوة والحصانة.

خذ ما يُفترض أن يكون قابلاً للحسد: الفراشي الفضية التي تحمل اسمي، الفستان الطويل، السيارة، مئات الخاطبين، الوقار في المطعم

– ما زلت أغنى مما يمكن أن يتخيله القلب الأكثر تطلُّباً، وقادرة على صبّ إحساني حتى على النظرة المتحفظة. خذ كل ما لدي، أو ما يمكن أن يكون لدي، أو أي شيء يمكن أن يقدمه العالم، فأنا ما زلت إمبراطورة الأرض الجديدة، التي لا يمكن لكولومبوس ولا لكورتيز مضاهاتها، حتى في حلمهما المثير.

اجعلني ختماً على قلبك، ختماً على ذراعك، لأن الحب قوي مثل الموت.

القسم الرابع

لكن عند حدود أريزونا أوقفونا وقالوا أديروا ظهوركم، وجلست في غرفة صغيرة بها نوافذ مقفلة بينما هم ينقرون على الآلة الكاتبة.

ما علاقة هذا الرجل بك؟ (حبيبي لي وأنا له: يسرح بين الزنابق).

منذ متى وأنت تعرفينه؟ (أنا لحبيبي وحبيبي لي: يسرح بين الزنابق).

هل نمتما في نفس الغرفة؟ (كم أنت جميل يا حبيبي، كم أنت جميل: عيناك عينا حمامة).

في السرير نفسه؟ (كم أنت جميل يا حبيبي، كم أنت جميل، وسريرنا مُوْرِقٌ).

هل حدث الجماع؟ (جلست تحت ظله ببهجة وكانت ثمرته حلوة الطعم).

متى تم الجماع لأول مرة؟ (أحضرني الملك إلى قاعة الولائم وكانت رايته فوقي هي الحب).

هل كنت تنوين ارتكاب الزنا في أريزونا؟ (سوف يرقد طوال الليل بين نهديَّ).

كم أنت جميل يا حبيبي، كم أنت جميل: عيناك عينا حمامة.

ابتعدي عن هذا! صرخ الحارس، وأنا أبكي عند شقّ الباب.

(حبيبي لي).

صرخ الحارس، من الأفضل لك عدم محاولة القيام بأي عمل مريب، فأنت تجعلين الأمور أصعب عليك لا أكثر.

(دعه يقبلني، يقبلني بفمه).

لا تتحركي من مكانك! صاح الحارس وضربني.

إنهم يقتادونني في سيارة شرطة. زوجة الشرطي تجلس جامدةً في المقعد الأمامي. إنهم يدّعون عليَّ بتهمة الصمت والحب.

تقول المشرفة: أعطني سوارك، لا يسمح بالمجوهرات. (حبيبي-). في الحال وخاتمك. (حبيبي-) وحقيبتك. تحمل كل مستحضرات التجميل الفاحشة تلك! أحمر الشفاه والعطور! لا عجب أنك في هذا المكان. (أعلني بالزبيب، وواسني بالتفاح).

تنعم عيون العالم الغيور النظر عبر ثقب الباب، من عيني الحارس. لكن التعذيب الوحيد يبقى غيابه فقط.

على الجدار آثار كتابة مخدوشة بدبوس: «إذا خرجت من هنا يوماً ما فخذ نصيحتي، كن صالحاً».

هل هو تحت نافذتي بلحن من البكاء؟

عندما فرقوا بيننا، شاهدوني أضغط على ركبته، قاطعوا نظراتنا لما احتوته أعيننا.

ما الذي تعيش من أجله إذاً؟

قال الضابط، أنا لا أؤيّد هذا النوع من الأشياء، لأنني رجل عائلة، وأنتمي إلى نادي الروتاري.

وجدنا على درجات السجن طائراً أبيض. أيها الحمام في شقوق

الصخر داخلَ الأماكن الخفية للدرج. إنه طائر الحرية في البرد خارجاً، ليس مرخَّصاً له، ليس طائراً ذا نفوذ. خفق قلب الحمامة على إبهامه وبكى أيضاً في مقصورة الهاتف.

أدرجَ المفتش كل الأشياء ضمن ست نسخ كربونية. قال، يا له من وغد، والفتاة مهووسة بالدين.

عندما شكرت موظفة السجن على الإفطار قالت، اصمتي! لا يُسمح لك بالكلام.

شجرة الفلفل الوردي خارج نافذتي ذات القضبان تتدلى بالحب الأخضر. هل رأوا مثل هذا الدليل الصارخ وما زالوا لا يصدقون؟ لا يسمح لك بفتح النافذة السفلى، قالت المرأة.

ليكن هذا درساً، قال المفتش، كان يجب أن تذهبي إلى فنادق مختلفة، قال السيد وارتل، كان يجب أن تعيشي في بلدان مختلفة، كان يجب أن تكوني قد ولدت في عصور مختلفة، في عوالم مختلفة، عندها لن يقيض لذلك أن يحدث.

هل كلّ الأمريكيين صالحون؟ كلهم كذلك بموجب القانون. ويحمل كل رجل سيفه على فخذه من الخوف في الليل. (في الليل على فراشي أردتُه هو الذي تحبه روحي).

ولكن بعد ذلك كانت هناك سيارة بمقاعد تصدر قعقعة، متوقفة عند منعطف على الطريق؟ لكن لا جبال من شجر المُرّ. لا، ولا تلال من شجر اللبان.

أدرك نفسك يا سليمان، تخلص من كل تلك الأشياء. التحق بِنَادٍ. كن على ودٍّ مع العصابة.

***

كل شيء مكتوب. هناك أربع عشرة ورقة وستُّ نسخ من كل منها. والأوراق سوف تطير فوق القارة مثل طيور الشؤم، وسوف توضع ضمن أضابير كي تحرمني الراحة. يمكن لأي شخص نافذ أن يتسلل ويرى ما قلته في ساعة شدتي وبعد عشر ساعات من الاستجواب. الحقيقة، الحقيقة الكاملة، ولا شيء غير الحقيقة، وبيلاطس البنطي يتكئ على ظهر كرسيّ، مع ثلاثين مليوناً من عشاق السينما يهتفون بنصائح ماكرة، والحب، أوه، الحب، جائع في سيارة الفورد تحت شمس الصحراء، يعميني ويجرحني ويمزقني إرباً.

هل أنت غير مقتنع أيها المفتش؟ ألا تؤمن بالحب؟

نظر شزراً. الحب؟ لقد مررتُ بالكثير في هذه الحياة، ولستُ بحاجة إلى إخباري عن ذلك.

لكن هل كل الأمريكيين عذريون ومؤمنون إلى الأبد؟ في الحفلات أيها المفتش، أنت تعرف بالتأكيد ما يحدث في الحفلات؟

قال، لست بحاجة إلى إخباري، لقد رأيت الكثير.

لكن أنت أيها المفتش، أنت نفسك؟

ليس لدي أي سلطة، قال، أنا مجرد ترس في الآلة، لدي واجبي للقيام به.

لكنك تهتم بالعدالة أيها المفتش وإلا فلن تكون حيث أنت؟

أنا لا أضع القوانين، قال، فالأمر ليس بيدي، ليس لدي سلطة. ابتسم، لكنه كان خائفاً من ابتسامته وذهب بعيداً مع رجل دقيق الشفتين وقرأ الرسائل التي كتبناها.

قلت إنها رسائل أدبية فقط، عن أشياء أحببناها كلانا.

لكنك شيوعية؟ قال.

كلا.

لكنك شاركت في أنشطة شيوعية؟

كلا.

هل لديك أصدقاء شيوعيون؟

ليس أكثر من الأنواع الأخرى.

ندمَ على ابتسامته وكان قاسياً نتيجة لذلك. كان الرجل ذو الشفاه الدقيقة يتأجج بالكراهية حيال قسماتنا المشبعة بالرغبة. تسلل عبر الشوارع عند الغسق لتحذير الفندق.

جلس الشرطيان اللذان اعتقلانا وأحضرانا عبر الصحراء على مقعد معاً، مثل تلاميذ المدارس الصغار، مغسولين ونظيفين ومهذبين، ليعودا إلى زوجتيهما ومنازلهما الهادئة ووجبات عشائهما، بينما كنا نوغل في الفوضى نحو المأساة، بسبب أهوائهما على حدود أريزونا.

نحن رجال عائلة، قالوا، لا نهوى الحب كثيراً.

ولكن ما هو المهم في الحياة، ما الغرض منها؟ لم يعطوا الأمر اهتماماً. ظهَرَ الرجل ذو الشفاه الرفيعة عند الزاوية وكتب في تقريره: لقد حاولتْ إغراء رجالنا.

يمكنك أن تقولي وداعاً، قال المفتش الذي ابتسم، لكنه أقحم عتلة التكهنات بين أفواهنا (الحليب والعسل تحت لسانك). وقال ليكن هذا درساً.

عندما بكيتُ، عندما بكيت أخيراً بصوت عالٍ، أبدى الخمسةُ رضاهم، وفركوا أيديهم، وانتهى عملهم الذي استغرق يومين.

حبيبي، حمامتي، غير المدنس، اذهب إلى صندوق الهاتف مع ديوجين واطلب رقماً يفهمه شخص ما. كانت ضريبة الدخل هي التي فعلت فعْلَها في آل كابوني. ما هي القضية الآن؟

يا لنظرته الذاهلة في البلدة الصحراوية وهو يعبر الشارع بمفرده، وكتفاه منحنيتان، بينما كانوا يقودونني في سيارة الشرطة. كنت أفكر أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً. لأن الحب كبير جداً، لأن الحبَّ كبير جداً لا أكثر.

من يؤيدنا إذا كان هؤلاء ضدنا بشدة؟ كانت كل رغباتنا طيَّ الكتمان، ولم نرغب إلا بحيّز لأنفسنا. هل يمكننا إفساد الشباب بالتحديق بعضنا في عيون بعض؟ هل سيتركون مكاتبهم؟ هل ستصيبُ الأزمةُ الأعمالَ الكبيرة؟

قال السيد وارتل: ‹لقد ناصبتِهم العداء›. ‹لقد تصرفتِ بغباء. لم يكن من حاجة لحدوث شيء من ذلك. كان يجب عليك مسايرتهم. لا يجب أن تتحدثي كثيراً›.

‹لكنهم جعلوني أقسم-›

‹إجراء شكلي›.

‹لكنهم تحدثوا عن طبيعة الحقيقة-›.

‹ما هي الحقيقة؟› قال السيد وارتل، ‹هؤلاء الأولاد الفيدراليون متشددون›

القسم الخامس

وبعدها، عائدة إلى كندا تحت أشعة الشمس الخريفية، أتطلع صوب بلدتي الآن وأذوب، فرغم أني تُوجت وتمرغت بالحب وحصلت من الحياة على كل ما أردته، فمن أنا حين أدخل منزل والديّ سوى ابنة ضالة أخرى؟ أرى وجوههم التي لن أتمكن أبداً من النظر إليها ببرود. يحدقون من النافذة بعيون مثقلة بما يخشون رؤيته باستمرار، مثل أشباح سابقة لأوانها، تطوف جهة بلدتي فوق السهل.

وأنا، التي أمتلك العالم في جيبي، لا أستطيع أن آتيهم بما يريحهم من خيبة أملهم أو يكافئ تفاؤلهم، سوى أن أسترحم مرة أخرى العجل المسمن الذي قتلوه من قبلُ أكثر من مرة بل قتلوه عبثاً. تؤسس خيالات الوالدين أطراً لآمالهما وندمهما نادراً ما ينمو الأطفال ضمنها، بل عوضاً عن ذلك، وعلى العكس من الأشجار، ينحرفان بعيداً عن ذلك المعمار بسبب ريح قاتلة لم يتصورها أهلوهما مطلقاً.

لكن الذهب العتيق لأشجار تشرين الأول، والأرز الصغير، والآفاق، والجداول الباردة بِسِياط من الصفصاف الأحمر، تسكرني وتؤكد اقتناعي بما فعلت، وتمتلكني كأم لا تقبل المنازعة قائلة: أنت لي مهما حصل، مهما حصل يا عزيزتي. تسمق الصخور الجبارة ماضيةً في إيمانها، لتبقى رغم أن بابل قد سقطت، يحدث أن تخضع للقولبة، ولكنها لم ترضخ قط، بالزمن الذي ينساب من الأبدية. هل يمكنني أن

أتوقع من أولئك الذين يرون مثل هذه الأشياء عندما يسحبون ستائرهم جانباً في الصباح أقلّ من الشفقة؟ مثل عِنْتِي (أنتايِس Antaeus)، عندما أُلقى على الأرض، أَرْتَدّ مجدداً مشحونة بالأمل. كل ورقة صفراء أو قرمزية معلقة كرايةٍ تحثّني على المضيّ. ترقد الأوراق البنية على الأرض مثل ألف ألف من الشهود على بساطة الحقيقة.

لذلك قد يحجبُ الحبُّ الآمالَ في عيون والديّ؛ أو تنهض البلاغة من حاجتي الملحة وتذوّبهما أيضاً بالرحمة. قد يطارد التفاهم الآن كل كاتب في شارع سباركس، ويلغي الإساءات التي بدأت إزاء وولف؛ أو قد تلتفت نحوي نظرة لطيفة في مقاهي (هَني دو) وأنا أفتح الباب.

لا أطلب غفران أحد عن خطايا أرفض الاعتراف بها، لماذا أبكي إذن وأنا أعود إلى بلدتي في أرض أحبها مثل العاشق؟ ومن مسافة بعيدة، ترنو تلك الوجوه من النافذة بصلواتها التي تشبه الجروح، متيبسة من القلق، لكنها مستعدة للترحيب بي بكل الحب. صوت خطواتهم أمام المدفأة يعبر عن كل ألم العالم الدوار.

أبشالوم، أبشالوم، ذب، ذب بالرحمة.

قادمة من كاليفورنيا، التي لا تعرف الندم، يجلدني تشرين الثاني القريب بشغف العام المحتضر. وبعد أن صلّب الجشع بالفعل جزءاً من الوجه الأمريكي وحوله إلى حجر، أتخيل أني أرى اللطف والرفق يرنوان إلي من نوافذ القطار. من المؤكد أن الحمال الذي يحمل حقائبي قد استخلص درساً روحياً من معاناته. من المؤكد أن قبوله دوراً متواضعاً يمنحه كرامة إنسانية.

وبمروري بالبيوت الخشبية الباهتة أشعر بذكريات شغف المستكشفين، وعزم رجال الدولة الأوائل الذين كانوا معتدلين وذوي شخصيات متميزة، وقادرين على التنويه بشكسبير أثناء النقاش السياسي تحت شجر الدردار. لم يتم وضع وجه عظيم مضاء بالنيون

فوق تاريخهم الصغير لكن غير القابل للنسيان. ولا دماء المستوطنين الأوائل، التي أريقت في الضغينة والبطولة، رغم أنها عُبّئتْ من قبل شركة كوكا كولا وبيعت بسعر العشرة سنتات التقليدي.

الوجوه، البيوت الكالحة، هواء الخريف، كل شيء يحملُ الوعدَ للضالّ. لكني أتكئ على نافذة القطار، وأنا سكرى بالأمل الذي يغرسه دائماً أي شيء فاتِحَتُه بالغة النقصان، أتذكر عودتي السابقة: احتفظي بتلك الرؤية، أصلي، وأضغط جبهتي على لوح الزجاج: الوجوه *لطيفة*؛ الناس *يمتلكون* فائضاً. تتجمع الطيور في مجموعات لتهاجر متنبئة بتغير خطير: تذكري، عندما تذبل عيناك بشكل حزين لأنك لاحظت غيرة أولئك الذين يبقون في المنزل، ليس هنا توكيد على حيوية صورة ذهنية طارئة، بل انتظار، وعي ناكرٌ لذاته كوعي الجنين، ينهض عليه تاريخ المستقبل.

تذكري أنه على الرغم من تلاشي هذا السُّكْر الاستهلالي، دفعتْكِ هذه الأشياء في تلك الساعة إلى البكاء، وجعلت لنظرة الخارج عبْر نافذة عربة الطعام وفرةً لا يمكن تحملها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

القسم السادس

عندما جلست على الكرسي الدوار في مكتب والدي، وطاولتُه تفصلنا على نحو رمزي للغاية، أدركتُ أنه لا يمكنني الدفاع عن نفسي أبداً. ما كان دفاعي سوى كلمة صغيرة واحدة لم أجرؤ على النطق بها، لأن مغني الجاز والوعاظ المنافقين ودوروثي ديكس قد أساؤوا إليها أيما إساءة.

‹الحب؟ هراء وكلام فارغ!› كانت والدتي تقول، ‹ما يهم هو الولاء واللياقة والمعايير العامة للسلوك›. لكن عينيها كانتا توحيان برجال متوحشين من القرون الوسطى قابعين في رأسها، متمسّكين بأيامها المتناقصة التي لم تجلب لهم الراحة.

لكني أمِلْتُ بالمزيد من والدي. يستطيع أن يسرد أفكاره أمامك كأدلة لقضية. ولكن إن رأى عاطفة تقترب يبتسم بألم، وهو يتمايل في كرسيه الدوار، على أمل أن تمر وتمضي: ‹ألست مهووسة قليلاً بهذا الشيء؟›

ومن ثم عبرَ موكب الكفّار: بلطجية الشرطة الشبقون، تلميحات السيد وارتل ووخزاته في المحادثة- ‹إذاً أفهم منك أنه يوجد شيء يدعى الحب؟›، المُحْصنات حسنات النوايا اللواتي يعلنَّ من داخل حيواتهن المعزولة: ‹عزيزتي، أعتقد أنك قد تندمين لاحقاً إن أنهيت الزواج›،

(عندما أحسستِ أن الأمر كان على وشك الحدوث، كان التصرف الصحيح هو أن ترحلي في الحال)، وكتائب من الرجال العميان يحملون لافتات تصويت: (إذا كان بحاجة إلى المال فلماذا لا يحصل على وظيفة؟) (ما الذي يعرفه عن الحب ليخذل بلاده في ساعة الحاجة؟)

عزيزي الرب، كم ودودةً تبدو شلالات شوديير المتجمدة تحت سماء كانون الأول، مقارنة بهذه الوجوه الجامدة. حتى الثلج يحمي الجيل القادم، الهاجع. هم، أولئك الذين يتحدثون عن حب أكبر، ماذا يكمن خلف برود نظراتهم المديد؟ إنهم لا يدفئون أي برعم إنساني تحت مظهرهم الخارجي، لأنه ليس هناك مظهر خارجي.

أنا الجني الأخضر في الأساطير، أطرق أبواب المنازل طالباً الخبز لأعرف من هم الطيبون. لكنهم جميعاً يطلبون المزيد، لا أحد منهم طيب. (أنا أدّخر نقودي للصليب الأحمر. ما هو العمل الحربي الذي تقومين به يا عزيزتي؟)

مكتبة سُر مَن قرأ

اذهب يا أخي الصغير، كي يتدفق دم أكثر وأفضل كي يُمسح بواسطة الضمائر المترهلة. لقد قص شعره مثل المحكومين، ويشارك مازحاً في ألعاب متعطشة للدماء: (لم أقابل هذا الرجل من قبل، لكنه يبدو لي كوغد).

هل تعلم أن 11,000 وجهاً تطابق وجهَ المسيح يزدادون نحافة في السجن الفيدرالي؟ لم يكن معهم مال ولا أسلحة، ولم تتجعّد سراويلهم. يزداد الشرطي بدانة كل يوم وينافس الدبابات الجديدة. يمحو أثرَ مدخل المقهى الصغير. يراه حبيبان فيُريقان الحليب على الطاولة إذ تذكرا ما فعلاه تحت الجسر الليلة الماضية.

لكن الشرطي أعمى. يضرب عندما يسمع ضوضاء عالية فقط. ومع ذلك، هناك آخرون لديهم عيون كعيون الصقور الماكرة، وهم يجوبون الشوارع بحثاً عن وجه قد ترتسم عليه قبلة غير قانونية.

كلا، ليس هناك دفاع عن الحب، والدموع لن تؤدي إلا إلى زيادة الجريمة. كوني عقلانية. كوني عادية. أنت فتاة ذكية. لديك عقل. اشغلي نفسك واصنعي شيئاً منها.

لن يكون هناك جنازة. لن يكون هناك ذكْرٌ لما كان سيغزو العالم، وما بعد العالم، الموت. لن يجد أي من هؤلاء الشهداء المصلوبين على كل شجرة في نصف الكرة الغربي حظوة في عين المحرر. في صفحة التسلية، ولملء الفراغ، ربما قد يذكر في مساحة بوصة ونصف البوصة أولئك الذين أجبروا على الموت. سعر الزبدة يرتفع عشرة سنتات. وسعر الإنسان ينخفض.

تذكري أوتاوا في ليلة رأس السنة الجديدة وهي تغرق تحت الثلوج، وأنت المصابة بالخناق تشطرين أمنياتك للعام الجديد إلى نصفين.

قالت أمي، لا! لا أريد المزيد مما يتعلق بك! وأنا أمد يدي لأقول وداعاً. وقال والدي عبر الهاتف، دعيني أعرف أين أنت، مرهقاً وفاتراً؛ قلتَ من حلقك المجروح، لا تُبدِ ردودَ أفعال تعارضني لأنني أبصق البلغم. *أنت* من ألحقَ بي الظلم الأكبر.

إلى أين كنا ذاهبين حينها؟ إلى أي مكان نكون فيه معاً ووحيدين. هذه الرغبة تسيء إلى كل الناس الذين لديهم أقلّ من الحب في جيوبهم. إلى جانب ذلك، حان الوقت هنا لارتداء الزي الرسمي، وليس قمصان النوم. لا فائدة من سؤالي لهم عما سأكون عليه من حال، أنا التي من دونك أصبح جثةً، حمولةً قصوى: عند الاستجواب في المحكمة، يجب على المرء أن يصطاد عشوائياً الإجابات التي يريدونها. كلمة حب تسيء بعريها. لم تعد الكلمة عمليةً عندما يعْلق أغلى جمل في ثقْب الإبرة.

حين غادرت أوتاوا قلت: لمن أقول «وداعاً»؟ دون أن أجد أحداً.

البعض يرحب بي بابتسامات حقيقية، لكن سنوات غيابي مرت دون أن يلاحظوا، ومحادثاتي معهم تبدو كالاحتجاجات.

هل يسعدني أن أصدم الأكبر مني سناً؟ هل يهمني الفوز في *الحرب*؟

هناك رجال خُلدوا أكثر من أممٍ، وأممٌ من الرجال كانوا على استعداد للموت في سبيل كلمة.

إذاً كلمتي أم كلمتك؟

لا تكوني وقحة أيتها الطفلة.

هناك أختي في المنزل مع أبنائها كرهائن، تقاتل لأسبوع دون أجر للفوز بوظيفة. ثم هناك عمتي التي تشبه عُقاباً طفيلياً، تقاتل من أجل دفع جميع النساء لارتداء الزي النظامي.

من يجرؤ على أن يتنفس المسرَّةَ عندما تكون الحرب هي الكلمة وليست الواقع بعد؟ تغطي ثرثرة الحرب هنا على الهدف الذي قد يكون بدرجات صغيرة الآن. في لندن يعرفون ذلك أكثر من سواهم، ويقبّل الغرباء بعضهم بعضاً في الملاجئ تحت الأرض أو يجدون النكات في التماثيل التي دمرتها القذائف.

يا وطني العزيز، كن في جنازة النفاق، وأرق دمعة النفاق المعتادة. أنا أدّخر دموعي لحدث آخر تماماً.

ذلك الحدث، وإن كنت قد أثبتَّ الآن يا عزيزي أنه غير ما أتمناه أن يكون، سيكون له مأتم بدموع البحر المالح ومشهود أكثر من الحطام الروماني، ومعركة امرأة واحدة، دامية كمعركة عشرة ملايين رجل. لقد ارتقيتُ لهذا الحدث لأكثر من مأتم ثلاثة أيام، وكنت سأبني نصباً تذكارية تدوم أكثر من ألفي عام. من تزامن المستحيلات هذا ربما يقيّض أن ينشأ جيل وعتْ أعينه كيف تقدر مثل هذه الشهب فيحمل الأسطورة كرايةٍ في طليعته.

ليس الأمر أنني أرغب بأن أجدّف، أو أن أقول، انظر ما أنا فيه. أرغب فقط أن أقول، تذكر أوتاوا عشية رأس السنة الجديدة: في ذلك اليوم الذي كان مشحوناً للغاية والذي لم يكن هناك من يزدريه الخصوم، لقد اخترتُ دون تأثير أو ضجة أو أي لافتة أن أيمم وجهيَ شطْر أيّ مكان إلا أن أكون فيه بعيدة عنك.

لا المنطق ولا الإدراك ولا الجشع ولا الرأفة ولا التبصّر ولا التعقّل الدنيوي ولا النفعية ولا الواجب البنويّ تجاه الأهل أوْدَعَ يدي في يديك. لا أحد يستطيع أن يقول إني كنت منساقة في تلك الساعة.

لذلك أقول الآن، توثيقاً لنفسي، ولأتذكر عندما أصبح غير مَن أكون الآن: على الرغم من كل الروادع القوية، والإدانات المشحونة بالانفعال، رأيت حينها أنه لم ينوجد شيء آخر في أي مكان سوى هذا الشيء، لا أديرة الراهبات ولا جزر المحيط الهادئ ولا الأدغال ولا كل موسيقى الجاز الأميركية ولا تأجج مناطق الحرب يمكن أن يضمر أي ركن يشتمل على أوقية من العزاء لو فشل هذا الأمر. في كل الحالات الوجودية، في كل العوالم، هذا كل ما هو موجود.

تذكر أيضاً أنني قلت، على الرغم من بساطتها، على الرغم من أنها الكلمة الأكثر عرضة للأذى، ميتة في مواجهة كل هجوم، وموبوءة بالفقر ضد العالم الممول للغاية، رغم ذلك فهي ليست ناقصة، إنها كافية. أنا لا أقبلها بحزن أو أسى أو كآبة أو يأس. أنا أقبلها دون غد، ودون أي من زنابق الوعود. إنها الكفاية، والحاضر، وعلى الرغم من أنها تأتي بدون أي شيء، فإنها تمنحني كل شيء.

يمكنني بها إعادة إسكان العالم كله. أستطيع أن أولد عوالم جديدة في الملاجئ تحت الأرض بينما تتساقط القنابل في الأعلى. يمكنني القيام بذلك في قوارب النجاة أثناء غرق السفينة؛ أستطيع أن أفعل ذلك في السجون دون إذن من الحارس. وعندما أقوم بذلك بهدوء

في الردهة أثناء انعقاد الاجتماع، سيخرج الكثير من رجال الدولة وهم يلفون شواربهم، ويرون دم الولادة، ويعرفون أنهم قد أحبطوا.

الحب قوي كالموت.

سوف نضع الليلة هذا العالم غير المرتب بأكمله في عش، وسوف يتأرجح بشكل مريح كما لو كان بعيداً ولا يعبأ التاريخ به كحق الهندي الأحمر في أن يكون حراً.

سواء أكان التهاب حَلْقِكَ يتحكم في كل أفكارنا وأفعالنا أم لا، فإن الليل سيكون مبطناً بالحرير ومحاطاً بساعات من الهدوء، مترفاً وبلا أشباح. سيكون نوماً حقيقياً، وليس مجرد أثيرٍ للتخلص من اثنتي عشرة ساعة أخرى عديمة الفائدة، نوماً لأجل النوم، وليس لانتظار مرور الوقت: الـزمن.

سأكون قادرة الآن، سواء أبكيتني أم لا، على احتواء المناظر الطبيعية وأنا أسرع إلى المنزل، وأن أتأثر بأدنى شجرة بتولا أو صنوبر؛ أو قد يعلمني مثلثُ ضوء وأنا أرفع سحّاب سترتي الصفراء قرب نافذة الصباح.

لماذا أُمْطَرُ الآن، ويا للمفارقة، بنُثار المسرّات، الآن وأنا أكثر غنى وأكثر حصانة؟ كنت أحتاجها للغاية في ما مضى، ولو واحدة منها فقط، كنت سأراها علامة رائعة، عندما كنت أستقل عربات الترام من وإلى منزل أمي، بكل الإحساس البائس؛ عندما كان لعدم وجودك بحد ذاته مذاق الجحيم. ثم أحكمت والدتي قبضتها عليّ بمخالب من علم الأحياء والشفقة والتنويم المغناطيسي الهستيري، وجعلتني أتوق لفنائي. هل يمكن حتى لفرويد أن يشرح رعب تلك القبضة، وحتمية جشعها للسلطة، ولماذا كانت أقوى من الرياح الشمالية الشرقية والذاكرة والعقل وصخرة ما قبل الكامبري؟

لا، لأنها خارج التصنيف والتفسير، وتكمن في الحاشية السفلية التي تقر بالظواهر والحقائق المحيرة، ولكنها لا تمتلك إجابة عن سبب وجود هالات من الطيور المغردة لدى بعض الملائكة، أو لماذا كان ينمو نبات الدبق من كعب بولدر.

ولكن طالما أن الملحقات بحالتها الراهنة تجعلني أكثر تسليحاً لمحاربة العالم العدواني، حتى لو فشل ألف مخطط، فلن آسَف على ذلك الماضي حين لم أتمكن من رؤية أي مستقبل. قد تكون عاجزاً عن الحياة، أو مصاباً بالشلل، أو الجذام، قد نتضور جوعاً في مجاري السيول، أو نصاب بالطاعون، سوف يظل جيبي مليئاً بحبوب الجاودار، الذي لا تتيح عملتُه لمصرِّف العملات التحكم فيها، ولا أن تتضاءل قيمته عن طريق الازْدِراع.

تذكر أيضاً، عندما تمسك رأسك الضعيف بين يديك، أن ما *نعاقَب* عليه، والأسوأ منه، ما *نعاقِب* عليه، ليس فقط بحر السلام ذلك الذي نجنيه عندما تناديني *أيتها العاهرة*، وإنما القضية. (القضية، يا روحي).

لأنه في بعض الأحيان عندما يكون لهذا الجانب، الدفء الغامر، الخدَم والحشَم والأتباع الوفيرون، نقول، نحن سعداء للغاية، نحن أغنياء وأقوياء للغاية. ومن ثم، بعد أن يتغلب علينا الشعور بالذنب أو العار لكوننا محظوظين للغاية، نتردد ونقول إنه من الظلم أن يعاني الضعفاء وعاثرو الحظ دون أن نعاني نحنُ.

لكن إذا أسأت لي بالتفكير أنني جميلة، وأن لدي مليون منقذ من اليأس، وبالتالي يمكنني أن أتحمل الكوارث بشكل أفضل من أي شخص آخر، تذكر، حقاً، أنت فقط من منحني هذه الهدايا. لذلك، كم يجب أن تكون خسارتي كبيرة حتى تأخذ ما يلوْح أنه ملكي بطبيعتي، قوتي على التحمل والمقاومة.

تذكر أني لست فتنة لك، بل أنا كل شيء يحرفك بعيداً. ولا أنت لي بل هدفي برمّته. أحياناً ترى هذا واضحاً كما أفعل الآن، لأنك تقول، «هل تعتقدين أنني لو لم أفعل، كان بإمكاني الحصول...؟»

لكن *الرأفة* مثل طفل متسول يتجه إليك بيده المتضرعة وعيناه مؤثرتان أكثر من الجمال. وعند السير في الجادة الثالثة تسمع صرير الفئران في فخاخ ربات البيوت.

هل تراني إذاً بصفتي الشخص الناجح للغاية محصنةً بالجشع، مثل العملاق الذي ينهض فخذاه المتناسقان ساهيين عن الحزن؟ أو مثل عبارة (مخصص للنساء) البغيضة التي تنتزع ثم تفترس؟

للأسف، هذه الأفكار هي خطاياك، وكسوة عارك، وليست أولاداً شقراً ذوي ظل عيون أزرق يميلون نحوكَ بغرام في المطبعة.

هناك من يحب إبليس لأنه قد خسر المعركة مع الله. كان لدى إبليس بعض من الحق، وربما كان هناك شيء فاسد في حالة الجنة حينها. لا تظن أني لم أرَ ذيول السناجب متروكة على جذوع الأشجار كي تنجو بحياتها، ولا كفوف الأرانب مبتورة في الفخاخ وقد اختلطت بالفولاذ.

عندما أسرع في الشارع، فليس ذلك بسبب أي لعبة ألعبها في ذهني مع المارة، بل من الخجل الذي يجعل الخياطات يطللن بقلق من غرفهن غير المضاءة جيداً، نصف مختبئات خلف الدانتيل الباهت، وهنّ يفضلن الحلم على مواقد الغاز والشاي الخفيف بدل الخضوع لتحقيقات العالم الوقحة. هناك أناس كهؤلاء كما تعلَمُ، وهم يعاملون ممتلكاتهم بلطف، كما لو كانت أطفالاً أو حيوانات. لكن لا تعتقد أنهن منسيات. هناك آلاف من الملائكة يحدبون عليهن، حتى إنهم الآن يقومون بتطريز تنانيرهن، ويستعدون لتعليمهن رقصَ الرومبا.

إنما من الذي يبكي على الملائكة، أو يلاحظ عندما ينتحون ركناً كي يكزّوا على شفاههم العليا؟

لست أدّعي أنني ملاك أيضاً. لكني أعلم أن مجرد كونك مشرقاً وسعيداً هو أمر يجلب الأعداء.

فقط تذكر: أنا لست الرفاهَ، بل الختام.

أنا لم أُنذَرْ كي أعميك بل كي ألتقيك.

ما تظنه صوت صفارات إنذار تصدح لأجلك وتستدرجك إلى الموت هو مجرد صوت الأمر الحتمي، يرحب بك بعد طول انتظار. لقد صُنعتُ من أجلك فقط.

كانت الدهور تتطور والكواكب تتفكك وتتشكل لجمع هذين الاثنين معاً. إذا فشلت هذه المؤامرة الهائلة حول إدارة مصائرك، ألا ترى كيف أنني سأكون الملومة؟

آه، لن يكون هناك فائدة من أن تريهم ابنك وتقول، انظروا، لقد أنقذتُ هذا من الدم. ألا تعرف كم هم مرهقون من التسويف؟ وأنت الساعة والجيل الذي يرجون منه نتيجة.

وأيضاً، لا يتنحى ابنك عن أرجوحته ليكون كبش فداء لأي شخص، بل ليلتقط تفاحته هو وبخطيئته هو، كما سوف يفعل ابنه بدوره في الوقت المستحَقّ.

القسم السابع

علقوا ذلك الوجه الباهر الموصوم بالعار وفق الأعداد المنطقية في غاليري المجرم. قيِّد مثل المجانين على السرير. هل هذا مستشفى أم سجن؟ لا أستطيع أن أعرف الفرق. أنا ممنوعة من الدخول. ركضت في كل ممرات الكاوتشوك، لكن مقاعد المسرح كانت فارغة.

كلا. أنا في حيرة من أمري.

قال إنه لا يسمح بدخول الزوار. ولا حتى يوم الجمعة.

ثم ذهبت حاملة المجلات والفاكهة، فقالت الممرضة: ادخلي، زوجته هناك.

عدت أدراجي، لكن جميع أبواب الممر كانت مغلقة. كلا، بعضها كان زجاجياً، لكنه مزدوج، وكان الثلج يتساقط في الخارج.

يا حبيبي، يا حبيبي الغالي، أين أنت؟ تحت الشجرة الخضراء. نعم. (وسريرنا مورق، وأنفه برائحة التفاح).

كانت السلالم حلزونية وممتدة لأميال. ولكنها مغطاة بالسجاد. نعم، لكن الناس كانوا يتفرجون بوقاحة ويعلقون على ملابسي المهترئة. الزوبعة تكاد تكون فوقنا، بمخالب رهيبة، ليست ريحاً، كلا، بل نُتَفاً صغيرة من الجرائد، تدور كالدوامة على نحو خطير في الجوار. أنا خائفة. أتظن أنها قد تدركني؟

في ذلك في هذا الوقت تقريباً الذي وجدتُ فيه الرسالة مطوية: حبي

الأعز إلى قلبي، إنك كل شيء بالنسبة لي: أريد أن أستمر كما فعلت من قبل. أعدتها إلى مكانها، نعم. لكنه أخذها من المدفأة الرخامية ورماها بعيداً. رأيته. كانت الشجرة التي تنتصب خارج النافذة مثقلة بالثلج. هذا يثبت الأمر، أليس كذلك؟

قال، عند الدقيقة العاشرة قبل منتصف الليل، اخرجي وأحضري لي كوباً يحفظ الحرارة، وسمعت قدوم العام الجديد بينما كنت أنتظر بجوار طاولة البيع في الصيدلية. ذاب الثلج وكانت الشوارع مجبولة بالدماء.

كنت أعتزم أن أخبرك عن الطفل. كان الأمر دائما هكذا. كانت الغرفة مليئة بالدماء حتى الكاحل.

نعم أنا أعلم.

سمعت نحيبها: لماذا لم تدعني أحتفظ بالطفل، لماذا لم تدعني أحتفظ بالطفل؟

كانت فتاة صغيرة، داكنة اللون، بأصابع طويلة. كانت جميلة، أليس كذلك؟ لا تشبه أبداً معظم الأطفال الصغار.

قال الرجل في بار البيرة، لم تشترِ شيئاً لساعة، أخشى أني سأطلب منك المغادرة. كانت الملابس تبخّر على الملفات الكهربائية، ولا تزال مبللة. إنه شهر كانون الأول، والغابات رطبة تنتظر موعداً. إن جلست على الحجارة ستصاب بالبواسير. لماذا يصل الكثير من البرقيات؟ هل نرسل واحدة أخرى؟

نعم، هذا فعل إنساني.

سوف تكرهني لو تصرفت بطريقة أخرى، أليس كذلك؟

عندما خرج من السجن كانت عيناه ميتتين وقال، لقد فقدت براءتي، محدقاً في السقف وهو يمضغ دواءً مخيفاً.

عندما خرج من المستشفى كان لديه ضمادة حول حلقه. قال، كان عليهم أن يربطوه. كان طبيب التخدير فناناً، وكان لديه إبطان ككؤوس الأزهار، مجرد رؤية قبعة عالية يسبب له الانتصاب، لم يكن لديه ما يجعله يواجه أي مشكلة في الالتحاق بالجيش.

لقد فعلت ذلك مرتين من قبل، قال اليوم ونحن مستلقيان في البستان، مرة معها، ومرة معك، ومرة مع (لحي حمار)[1]. واحد، اثنان، ثلاثة.

حبيبي، أعتقد أنني أرى القليل من الدم على ملابسك.

نعم، هذا من بطن الحوت.

النساء متملّكات للغاية.

كشجرة تفاح بين شجر الغابة، كذلك هو حبيبي. كل ثلم في البستان يُحرث إلا عند جذع الشجرة حيث ينمو العشب. ينتصب هناك مثل *ذي الصوف الذهبي*.

سامحني لأني، بالطبع، أخدم شخصين.

هل يمكن أن تخبرني عن طريقة للخروج من هنا، من فضلك أيها الطبيب، أو المفتش، لا أستطيع أن أرى من أنت في هذا الضوء.

لا أحد يسمعني. إنها أرضية الكاوتشوك الخرساء. لقد أمضيت ساعات وساعات أطرق على الأبواب المختلفة.

لكنك شيوعية؟

كلا.

رافضة للحرب؟

1- من الكتاب المقدس، سفر القضاة 15: 15 - وتعني عظم فك الحمار. المفرد (لحي)، والمثنى (لحيان) والجمع (ألح ولحيّ ولِحاء).

كلا.

أنت وغدة؟ في حالتك، إذاً، أعتقد أن الشيء الوحيد الذي يجب عليك فعله هو الذهاب إلى حافة الهاوية والقول، هاهنا سيرحل لا شيء، ثم القفز. حسابك ثمانية وثمانون دولاراً ودولاران إضافيان للأدوية.

حبيبي، لماذا تركتني في شارع ليكسينغتون في سيارة الفورد التي لا مكابح لها؟

تباطأت السيارة في زحمة السير وتعطلت. خارج نافذتها، كانت تكتب رسالة: أحبك كثيراً: توخَّ الحذر في العواصم.

كانت تلك رسالة مختلفة.

نعم، لكني في حيرة من أمري. ذات يوم رأت مشربية ذهبية في البستان. ذات يوم قالت، إذاً عشْ مجونك مع شقراء، وابذلْ شغفك عليها.

أرى كل شيء، برازاً من الذهب المصقول. ماذا لو غضبتُ وأحدثتُ بلبلة؟

لكن لا، لا.

لا، أنا أصدقك، بالطبع، أنا أصدقك، ألم تقل إنني كنت الوحيدة؟ نعم قلت ذلك، اعتن بهذه الفتاة فهي ما يجعل دمي يسري، وما يجعل كل النجوم تدور، وكل الفصول تعود.

هذا ما حلمتُ به، ومنه كانت هناك دوائر سوداء تحت عيني هذا الصباح عند الإفطار. لاحظ الجميع ذلك، وأعتقد أن أحدهم ضحك ضحكة مكبوتة.

أنت لا تهتم كثيراً بالسياسة، أليس كذلك؟ أنت لا تقرأ الصحف أبداً؟ شربت قهوتي، لكن كان لدي شعور خفيف بالغثيان. هذا متوقع، لا أحفل بذلك على الإطلاق، إنه لا شيء.

حبي، هل تشعر بتحسن؟

لا يستطيع الكلام، يمكنه الغمغمة فقط.

يا عزيزي، يا عزيزي، اشرب القليل من الحليب، واضطجع واسترح قليلاً. سوف أريحك. أستطيع أن أحمل الحب مثل القديس كريستوفر. إنه ثقيل، لكن يمكنني حمله. إني أتعثر بحجارة الشك. هل قلتُ الشك؟ كلا.

كلا. كلا. إنه لا شيء. أنا أحبك. شعور خفيف بالغثيان، هذا كل شيء.

أخرجُ بعد وهلة إلى الهواء الطلق، وكان وجهه قمراً معلقاً في الأغصان المثقلة بالثلج.

القسم الثامن

أخوه ووالدته وجدَّتُه يرقدون متروكين فريسة للموت على حجارة مترو أنفاق لندن. انحشرَ اثنان من الخصوم في أصغر حيِّزٍ ممكن، يسندُ أحدُهما الآخرَ كي يناما.

تفضي الرسائل المليئة بالندوب السوداء من سكين الرقيب بما لا يمكن تخيله: «سمعت طفلاً يسأل أين ساقاه». نفكر الآن في البصل والليمون بتوق. يقول الراديو: «من الحرمان وموت الأصدقاء تنشأ عزيمة جديدة»

القنابل أكبر مما مضى، لكن العقول البشرية التي تفجرها تبقى كما هي. الوجوه التي قبلناها ذات مرة هي التي يتم تحطيمها في المدن الساحلية الإنجليزية، الأيدي التي صافحناها هي التي غطّاها الركام؛ العناوين الرئيسية تتحدث لنا عن حياتنا الخاصة: الكلب الأجرب الذي يهرول تحت نافذتنا لا يزال يثير شفقة حقيقية. سقطت بابل وسدوم والإمبراطورية الرومانية، لكن العاصفة الثلجية الشتوية تجرح بالقسوة نفسها التي كانت عليها دوماً، ولا يزال الحب يقتلع القلب أكثر من لغم أرضي متخيل.

أخوه ووالدته وجدته يرقدون مدفونين، ولكن في حمم التاريخ. وبطبيعة الحال ندَبَتْهم جوقة الأجيال القادمة المأساوية. ستظهر تماثيلهم عند افتتاح بومبي الجديدة.

لكن هذه الدقيقة النازفة لا تعنى إلا بحقيقة اللحظة، التي تقول إن الفجر قريب وهو لم يعد بعد: لم يوَاسَ ، لأن صوتَه الراجف قبل ثماني ساعات أعلن على الهاتف وفاتهم.

لماذا قد تقلل عشرة قرون من ويلات العالم من حقيقة أنني أحب؟ أحتضن البذرة، أحتضن البذرة، حتى في فم البركان. أنا آخر امرأة حامل في عالم مقفر. السرير بارد والغيرة قاسية كالقبر.

عندما تحوم عيناي في أرجاء الغرفة كسفينتين تائهتين في البحر، أعرف القياسات الدقيقة لمدى أَسْريَ. فأنا لا أستطيع الهروب بضرب رأسي في هذا السجن الشبيه بالصندوق، ولا يمكنني استدعاء أشباحي المرافقين بعيون حالمة. لا يوجد مكان للبكاء. غالباً ما تكون الجدران رقيقة جداً وأصوات الشهقات عاليةً للغاية بحيث يتردد صداها في الشارع وعبر خلجان المياه المالحة.

لا يوجد أبداً وقت أو مكان لمثل هذه الكلمة.

كأدلة على الكارثة كلها، لدي الجنس المؤلم لقطط الأزقة على الأسطح خارج نافذتي؛ جرس ربع الساعة لساعة لا تطلق نغماتها أبداً؛ أزيز اللفائف الكهربائية، مرحة ومنتظمة مثل الصراصير. على الرغم من ذلك، فإن المصعد يحمل وعداً بحدث لم يتحقق قط، وتصرخ المواسير عن بُعد أحياناً كبلاغ مذنَّب يسقط من علٍ.

أستعرض كل ما أعرفه، دون أن أركّب أي معنى. عندما أغفو، توقظني الحقيقة، الكارثة الحتمية المحققة، بقسوة مثل ممرضة عنيفة. أراها رابضة بعناد في زاوية من السقف. تنزل في شكل قطري هندسي مثل البرق.

تقول، سأبقى، *أنا موجودة*، لن أتوقف أبداً عن الوجود: سيملأ

ذاكرتك زجاج مميت: ستَنسين، وستتلاشين، ولكنني لا أستطيع أن أكون مخلخَلة.

وهكذا كل ربع ساعة تدسّ طعم الموت في فمي، وتُريني ، لكن ليس برفق، كيف أتعاهر في طلب السّلوان.

يتقطّر ورقُ الحائط كآبة، والجدران تضغط مثل الـرَّوْع. هذه الغرفة المظلمة في الفندق هي مركز الدوامة التي لم يعد بإمكان أحد أن يقاومها.

هذا هو السرير حيث حرّرنا الحب وأذبنا الجدران، إنما أيضاً حيث هزه الليل من ياقته ككلب حتى بصق كامل خوفه: «أنتِ عاهرة! أنت مجرّد عاهرة!»

«أنت تعلم أنك تحاول تحفيزي لا أكثر!»

(كلا! كلا! كلا!)

هناك كرسي، لا يعمل كما يجب، حيث كان يقرأ الجريدة أو ينتظر مستغرقاً بشكل مبهَم. إنه أسوأ خصم لي لأنه كان يفوز به في معظم الأحيان. على الرغم من أن الكرسي كان ينفتح أحياناً بشكل لطيف لأرى الحبيب من خلال أصابعه مبتهجاً بالتملك بينما كنت أتبختر أمامه.

المرآة هي أفضل مربٍّ. أعادت لي في ليالي الحظ وجهي كأنها تمنحني شرفاً مكللاً بالاعتزاز: هذا هو الوجه الذي أطلق ألف ليلة من الحب. هذا هو الفخ الذي أغرى كبير الملائكة إلى سريرك: هذا هو الأداة المتزعزعة التي تجذب إليك النجوم القطبية.

لكن في بعض الأحيان، وحيدة، جذبتني مثل الدبابيس التي تأتي على شكل فراشات، وأظهرت لي وجهاً يوشك أن تغمره الدموع،

يعود مطارداً إلى عقم مشورته الخاصة، عندما يصل يوم الغضب، الذي يتدفق الآن، إلى الحاضر.

دفعني مشهد ذلك الوجه المجنون في الغرفة نصف المضاءة إلى الصلاة والضجيج. ظلك إذ يلتقيك يُعلن النهاية. قَسَمَةٌ محتملة ووشيكة للغاية قضمتْ ذلك الوجه حتى الموت. ولكن عندها أُشعل الضوء الكهربائي، دون أن يُظهر الفجر الكئيب إلا المسام المتضخمة وبقايا مستحضرات تجميل يوم الأمس.

لكن مراراً وتكراراً عندما أنعم النظر في المرآة لأجد تشوهاً لصورتي الخاصة، تشوهاً من شأنه أن يجعل ألمي أسطورة محتملة، فإن هذا الشكل ينحني فوقي في عناق أبدي، مثل أضواء النيون اللحوحة، أو أتذكر الليلة التي حولَته إلى فتاة آشورية، ملقياً بجلده تحت عمامة مزهرة. ثم كنا أختين وأنا الحامية. لم يكن لديه ثديان، وهذا ما كان يستثير الحنين. يا لعصفور سِفاح القربى المتألق. لكن إن كان الجميع خاضعين بلباقة، فمن سيضع اليد على القلب؟ خلع غطاء رأسه وكنا أناساً عاديين متأهّبين للّيل.

سطّرتِ الآلةُ الكاتبة ثقوباً في ألعابنا البسيطة، وخلقت الفجوة التي كادت تكسرنا وتكسر أظافري. أفهم الآن ما هو الحب الطارئ لرجال الدين، وكيف يمكن للفتيات أن يكن عمليات جداً، ومع ذلك، غير مكتملات أبداً. إنها تقضم حتى تبلغ مرحلة السقالة، التي لم تسمع قط عن الرغبة في منامة وردية مزركشة، ولا الترفيه بابتكار طرق جديدة للانغماس في الحواس الخمس الضعيفة والشهوانية. إنها تدرب الأعصاب، وشحيحة في عطفها. إنها ليست أداة حب.

في المقاهي، خلف الستائر الفخمة، حيث حظينا برفاهية مؤقتة مقابل خمسة وعشرين سنتاً من كلٍّ منا، سارت الأمور على ما يرام في بعض الأحيان، وحبست أنفاسي وهيأت شوكتي فوق فطائر السمك

عندما جاء الوحي. بنظرة جانبية إلى المرآة، كان بإمكاني رؤية وجهه يراقبني، ولم يكن لدي أدنى شك حينها في تسامحه.

في متجر الرهن والمصرف، حيث ذهبنا للحصول على رسائل وإجابات على نداءات استغاثتنا، كان في حالات مزاجية مختلفة، مثل اللاعبين الخاضعين للأضواء الملونة الدوارة. لكن لا الشوارع المتهالكة ولا الفندق الضيق أصبحت بالنسبة لي، كما كانت دائماً بالنسبة له، رموزاً للبؤس والإفلاس، أو أرضاً لا يوجد فيها أحد للتحدث معه ولا يحدث فيها أي شيء على الإطلاق.

أينما ذهبنا، مهما فعلنا، كان علينا دائماً العودة مثل الثعالب المحاصرة إلى غرفة الفندق. وطالما بدد ورق الحائط بما عليه من كتابات كثيفة أي تفاؤل قد نكون جمعناه. لم تكن هناك حلول في كتابات الحائط. لقد دفعتنا إلى اليأس. إنها مسؤولة جنائياً عن كل التواريخ.

فمن يخطط للانتحار جالساً في الشمس؟ إنها كومة الغبار تحت السرير، والملاءات المتسخة التي لم تغسل قط، هي ما يتسبب في وقوع الحوادث القاتلة.

***

عندما تتصدع السفينة في الإعصار، نغطي رؤوسنا ونقول لأنفسنا إن كل شيء سيعود إلى طبيعته. لكننا غير مؤمنين. قد لا تكون هذه المرة مثل المرات الأخرى التي تحولت بمرور الوقت إلى حكايات مرحة. القصص التي سمعناها، عن عشرة آلاف دفنوا في الزلزال، كانت في الواقع حقيقية.

والأكثر كارثيةً من أي جائحة بشرية، أن الديناصورات سارتْ عبر الصحراء نحو نهايتها. لم يتركوا أحفاداً لتزيين ملحمتهم، خلفوا مجرد عظام بيضاء وعلامات موجودة في الطين لعلماء الآثار كي يحولوها

إلى هوامش سفلية. قد تكون ساعتنا هي هذه الساعة، ونهايتنا نهاية الديناصورات.

لذلك ربما لن يكون هناك عودة أبداً إلى الحالة الطبيعية، بل مجرد أرشيفات مليئة بصور الحياة البدائية، مثل الصور المركبة لبطلات السينما.

لكن معنا أو من دوننا، نصرّ أنه يجب أن يعود *اليوم* نفسه، عندما تجلس *الطّرفة* لتتمتع بأشعة الشمس على الأقل، وتزين جسدها الخامل بالأحمر المجهول، الذي كان يوماً ما دماً.

الفلسفة، مثل الأشنيات، تستغرق قروناً لتنمو، ويتم تجاهلها دائماً في *كتاب التعليمات*. إذا كنت لا تستطيع التحمل، اخرج.

لا يمكنني التحمل، لذا أستلقي على سرير الفندق وأتحول إلى مواد كيميائية سوف تلاحق مغامرتُها الزمنَ حتى هلاكها، دون أدنى تأثير لتلك السنوات القليلة التي جمعتُها معاً بشغف إنساني.

آه. أين تراه يتبختر مثل حصان في حقول نائية جداً؟ لا أستطيع سماعه، والصمت يكتب أشياء فظيعة أكثر مما يستطيع أن ينكره. هل هناك شك في أن المعركة قد باءت بالفشل؟

لقد قتلني بالتأكيد أربع عشرة ليلة متتالية. وكي يقوم المخلِّص من مثل هذه المذبحة يجب أن يصبح امرأة حقاً. قال إن هذا الغياب كان مجرد جانب ضروري للأمر. لكنه ليس *الأمر* ذاته.

ارتكبَ الخطيئة الوحيدة التي لن يسمح بها الحب. الشرطة، وسَوَرات الغضب المنزلية، والأصدقاء من مهدّئي الروع، ورجال شرطة المقاطعات المرتشين، وقذارة الفنادق، كانوا عاجزين، لكن الحب له قوانين أخرى، يعاقب على انتهاكها ولو دون محاكمة، حتى لو كان تعدياً من الدرجة البسيطة.

لقد ارتكب خطيئة بحق الحب، وعلى الرغم من قوله إن الأمر كان باسم *الرأفة*، وإن الرأفة كانت فقط تخوض معركة خاسرة مع الحب، فإنه كان عديم الفائدة للرأفة، والحب المتردد الجريح، الذي كان في النهاية هو ما خاطر بكل شيء لأجله وكل ما لديه، لا يمكن المقامرة به.

أنا محاصرة بدون نجم قطبي. فما المانع الذي قد يكبح يأسي؟ ما الذي يمكن أن ينقذني؟

ليال كثيرة فاقمتْ وقائعها المتفجرة، ومن دون الحقيقة الوحيدة التي تنقضها هذه الحقائق، فإن خمسة ملايين لاجئ، والجثث التي ماتت من الجوع، والدم والقتل، ليس أمامهم أي سد على الإطلاق. (الحب فقط هو ما يمكنه بنظرة رائعة أن يوقفهم).

لكن أين الحب؟ مصلوب على بعد خمسمئة ميل. ممتد في الثلج فوق البلاد المتداعية حيث الطيور فقط في مَواطنها، وهي هناك لستة أشهر في السنة فحسب.

كيف يمكنني أن أرتقي بالحب إلى مستوى آمالي مع الميول الانتحارية وجموح العينين عندما يكون الأمر بسيطاً جداً وواضحاً جداً: إنه يشعر بدموعها هي تتساقط على صدره كل ليلة؛ إنها هي من يشعر بالقلق عليها؛ وإنّ *الرأفة* في نهاية الأمر، وليس الحب، ما تملأ كل ساعاته الأربع والعشرين.

ربما أنا أمَلُه حقاً. ولكنها هي حاضرُه. وإذا كانت هي حاضرُه، فأنا لست حاضرَه. وهكذا أنا لست موجودة، وأتساءل لماذا لم يلاحظ أحد أنني ميتة ولم يتحمل عناء دفني. إني منهارة تماماً. أستلقي بعيون زجاجية، أو أبكي من الضعف المطلق.

كل الناس يبدون غير ذوي صلة من الناحية الجنائية. أتجاهل الجميع وكل شيء، إذا قاطعوا اضمحلالي أو تطفلوا عليه، أكرههم.

الطبيعة لا تعدو كونها الطقسَ المتقلب والأزهار التي تذكرنا بحالات عديمة المعنى في الوجود.

لم أكن في الحب بل في اليأس خلال الأيام العشرة الماضية. ودون الحب أنا ضائعة أكثر مما يمكن أن يعتقد، هو الذي يعتقد أن الطبيعة تنعشني بحيوية. كانت الطبيعة طيبة، وقد اجترحتِ المعجزات بي ولأجلي، ولكن هذا هو المكان الذي يفضي إليه كل شيء، ولأجله حافظتْ عليَّ. وإذا افتقرتْ إلى الشمولية، ستهوي، ثم تفتقر إلى كل شيء، وأنا ميتة كبيضة الكاهن التالفة.

في بعض الأحيان، عندما أضغط على الألم من جانب إلى آخر في رأسي الحبيس، أقول: إذا كنتُ أعاني، ففكري في ما عانته هي - أكثر بمئة مرة ودون أمل، وكنت سعيدة للغاية لأني كنت على دراية بمعاناتها العميقة والمريرة.

ثم شعرها، ينسدل كالحسْرة، يطفو في حديقة مهجورة، محمولاً مع كل ورقة ميتة تكدرها الريح؛ أو إيماءتها التي تعثرت بمعان كثيرة لتمسحَ صدغه بظاهر كفِّها.

لكن ليس لأجلها يتفتح قلبي وينكسر: أموت المرةَ تلْوَ الأخرى لأجل نفسي وحدها. لأن صورتها المتحركة تمنع حتى بكائي له كي يمدَّ يدَ العون. وحتى لو كان يحبني بين ذراعيها.

يا للحقيقة، الحقيقة الراسخة: إنها هي من هو معها: هو معها: هو ليس معي لأنه ينام معها.

لكني لستُ أنزف. السكين المغروزة في جسدي تترك فقط الثقب الذي يثبت أنني ميتة.

لماذا يكتب (استشهاد بسيط)؟ ألم يستمر الصلب ثلاثة أيام فقط؟

هل قصّر أيام التعذيب أم الحقيقة بأن الأمل ما زال يتنفس هي ما تجعله يقول *بسيط*؟ كيف يمكن لشيء ما بهذا الحجم أن لا يكون كليّاً؟

لقد *استشهدني*، لكن بلا قضية، ولم يكن لديه أدنى فكرة عن حجم وعواقب جراحي. ربما لن يعرف أبداً، لأن قولي، *لقد قتلتني كلَّ يوم وخاصة ليلاً*، سيُنحي باللائمة عليه. أنا لا ألوم، ولا حتى أقولُ *ربما كان باستطاعتك فعل هذا أو غيره عوضاً عن ذاك*.

بل حتى أقولُ، يجب عليك أن تفعل ذلك، يجب أن تفعله، لا يوجد بد بل، إصراراً مني على قتلي.

لكن إذا علقتْ سكينٌ في المحرك الذي يضخ دمي، فإن دمي يتوقف، مهما حاولت إقناعه. هل سيلاحظ أن قلبي قد توقف عن النبض؟

غير أنه في لمحة واحدة قد يعيدني ويغمرني بالكثير من الحب الجديد بحيث يكون لكل ندبة غطاء من الساتان وتكون بريقاً جديداً يغزو قلبه. من المسافة الكبيرة هذه، وبعد ليالي الفراق هذه، لا أستطيع رؤية المزيد. غمرتِ الثلوجُ مخيلتي خلال الساعات الأبدية غير المرقمة أو المنقَّطة.

ماذا سيحدث إذا لم تكن هناك قيامة فورية. سواد أسوأ من أكثر هواجس الموت سواداً، أو نسيان قبائل ما قبل التاريخ.

لكني أشعر بنذير شؤم قاتل من شيء واحد: إذا سمح مرة أخرى لتلك الليالي بالحدوث، أو داعب بندم آثام الماضي بحق الآخرين بينما يأثم بحقي على نحو خطير، فسوف أكون غير قابلة للإنعاش. سأُصعق ميّتةً بالحقيقة، سواء أردتُ ذلك أم لا.

وقد يُلبس الأمرَ ألوانَ البشرية الأكثر رقة، وزيّ الرأفة والتعاطف، ويدعو الحب ليكون عطوفاً، وأنا أيضاً سوف أصلي، *اجعلني* طيبة، لكن ذلك لن يكون مفيداً. الفاعلية للحقيقة فحسب، وتلك الحقيقة ستكون قاتلة.

لا يمكن أن لا يعود. أنا مستلقية هنا على بعد خمسمائة ميل، على كوع واحد، كل ساعة أتوقع نقرته الخفيفة على الباب. كلما يصدر عن المصعد صرير خافت أبدأ التفكير: هل سيتقيأ هذا الوحشُ معجزتي؟ برقية؟ أو اتصال هاتفي؟

هذا هو عشب الأمل الذي ينمو بلا هوادة في ذهني، الذي لا يجرؤ على الاعتراف بأن فمه ربما الليلة، كما منبت كل الورود، ينغلق على فم ليس لي، ملتجئاً إلى الاعتذار والحب، مثل طفل على الصدر.

لأنه بقولي إنه لن يعود أبداً، ألقي بنفسي في الدوامة، وأُسْلم ذهني إلى الجنون، وألد مهجة قلبي، طفلي الذي لم يولد بعد في طوفان من الدم والموت. لا أستطيع أن أفعل هذا، والطبيعة ترسل لي آلاف الغرائز اليائسة التي تجعلني أسرع جيئة وذهاباً في الشوارع، وأتفحص المجلات، وأستغرق بشكل محموم في أسعار أجهزة الغراموفون.

لن أفكر في الأمر الآن. لا وقتَ لديّ. عندما أغسل جواربي سأفعل. عندما أخيط زراً سأفعل. عندما أكتب رسالة سأفعل.

بوسوسة ثمينة تمطرني الطبيعة بمهارة بينيلوب لإنجاز أشغال دقيقة صغيرة أخطأتُ فيها من قبل: صنع عروات الأزرار وكشكش الياقات. كرمى لله لا يجب أن أفكر الآن، لأنني لا أستطيع البكاء هنا. الجدران رقيقة جداً.

لا مكان ولا زمان لمثل هذه الكلمة.

لا أستطيع أن أفعل شيئاً، لأن الشك أصابني بالشلل. لا يسعني سوى انتظاره، مثل بيضة تنتظر اليوم الحادي والعشرين، حتى يصل بكل الرياح الغربية لليقين الذي لا يقبل الأخذ والردّ. يمزق الشكُ غطاءَ الأمان الذي وضعتُه على أعمدة مخاطر وندوب جراحاته الماضية في

طوطم الماضي. يمزق الشكُّ كمخالب الهارْبي الأسطحَ الملساء حيث قد يكمن الموت متخفِّياً في المكر والنكوص.

أنا أكثر عرضة للأذى من الأميرة التي لم تستطع سبعُ فرشاتِ إخفاء حبة البازلاء. ليست اليقينيات هي ما لا يستطيع الحب التغلب عليه، بل الشكوك، الشكوك الرهيبة هي ما تثير بركان فيزوف في معدتي. يزودني الشك بأدلة تكفيني لأنْ يصلَ بي الوهم إلى إلقاء اللعنة على نفسي.

ههنا، آه، أتصلب ذعراً، و تحُول الأميال الخمسمائة ما بيننا مثل الجيوش، ويمكنني أن أهرع إليها في سيولة من الندم والعار لأنني قتلتها لقاءَ لا شيء.

أفهم جيداً كيف أننا جميعاً زوجة لوط، بالنظر وراءَ وجوهنا البطولية المحبة. لكن هل كل شيء غير قابل للدحض؟ ألا توجد حقيقة منيعة؟ أليس هناك ولو لمرة واحدة في المليار سنة (عين ثور) تستحق ذبح العمل الجازم؟

دفع شغفُنا ببركة الجليد الشمسَ إلى المشهد. هزهزت الأيتام حتى يناموا وجمّدتْ قلب فتى المقصورة الجديد.

حفرت نظرة هيثكليف حفرة في إنجلترا لم تمحها أجيال من الخلنج في البراري.

أعطني إيماني بالحقيقة الوحيدة، سأتمكن من علاج السرطان والنميمة والحرب. أعطني الحقيقة، ومن ثم سأقطع يديَّ وأعطيهما لها فأهدّئ من روعها لساعة واحدة.

اجرحني، خنّي، إنما اجعلني موقنة بالحب، طوال النهار وآناء الليل، معه وبعيدة عنه، دائماً وفي كل مكان، تلك هي جاذبيتي، والتفاح (الذي ينضج في حديقتي) سيسقط إلى جهتها فحسب.

في تلك الليالي التي تتطلب اتخاذ قرار، تكتبُ الشوارع الباردةُ أبداً

الجوابَ بالدم، وذلك ما يحفر التجاعيد في وجوه النساء العجائز: الحكمة التي يحصل عليها كبار السن لأنهم لا يستطيعون تذكر الشغف.

يقول الشباب، لما لا نموت قبل عارٍ كهذا؟

لكن الكبار يمشون بتثاقل على امتداد أوروبا دافعين العربات والبطون الهائلة المنتفخة بالجوع، يقاتلون مثل القطط من أجل قشرة للبقاء على قيد الحياة، ويسعدهم أن يجدوا مكافأة في كعكة بقِشطة وردية.

هل لأنهم ينسون أم أن هناك تعويضاً حقيقياً في المشهد بعيد المدى؟

يوجّه أولادٌ، ورجال في منتصف العمر، المسدسات إلى صدوغهم، أو يقفزون من نوافذ الطابق الأربعين، لأجل كبريائهم.

لكن كبار السن يكتفون بالْتماس نظرة ممن اغتصبوا مكانهم. هل يرون حقاً كل شيء؟ أم أن الطبيعة تسير بجانبهم ممسكة بسواعدهم المترهلة وتهمس بأكاذيب طيبة؟ لأن الذاكرة تهجرهم وعيونهم تصبح خافتة بينما يحقق الماضي توقعاته. من يمكنه القول إنَّ مكسباً ما قد يُنال لقاءَ مثل هذا السعر؟

‹أعتقد أنني أرى العالم ممدداً مثل جثة، يا عزيزتي، لكن عينيَّ أبلاهما العمر ولا يمكنني التأكد من ذلك›.

‹في الليلة الفائتة سمعتُ سربَ ملائكة تبكي خارج نافذتي، لكن قد لا يكون ذلك صحيحاً، فأذني لم تعد كما كانت. إنه أمر عديم الأهمية. لا تتكلفي عناء التحقق.›

هل سيكون لدينا شيء ما نقوله في مُطلَق الأحوال، نحن الذين نعرف الكثير بالفعل؟ ذلك غير مهم في الحقيقة، كل شيء سواء في النهاية.

‹إن أردت أن تريح قلبك
من الحب ومن كلّ حسرته
فنمْ يا عزيزي، نمْ›.

يا لأصابع البرد، أصابع الصّدّ الصغيرة الزاحفة.

القسم التاسع

ها قد عمَّ العشبُ الأخضر البلادَ. تتشبث مخيلتي بهذه الحقيقة كزجاجة ماء ساخن، وتخدر نفسها بها، وتستخدمها كدواء لتخفف عن قلبي فتُخمد كل مَنابتِ القلق. مستقبلي مزروع هناك بالفعل، وأملي يستعدّ للتفتّح مع زهر الكرز.

حبيبي يحوم حول جريمته. لا أستطيع الاتصال به. لا أستطيع أن أقول، أَنْجِزِ القتلَ الأخير، ولا يمكنني أن أقول، أنعشها وابقَ معها أبدَ الدهر على أنها البديل الوحيد.

ليس حاضراً. ذَهَبَ بكليَّتِه. لا يوجد سوى الكرة الأرضية المتورّمة. لا شيء يذكرني بأنني كنت على قيد الحياة في يوم من الأيام إلا السوار الذي وضعه حول معصمي. عيني الميتة وأيامي الجوفاء تؤكّد فقط على أنني ميتة، ليس هذا السبب، وليس حضوره.

أفكر في أدوات الحب بإبهام، وأقول بدهشة باردة، هل يزلزل العالم من أجل لمسته بعد ما حصل؟ النهد الذي اشتعلت فيه النيران من مكان بعيد هو أكثر برودة وأقل قابلية للاشتعال من قمة إفرسْت.

هذه الحالة بعيدة عن الشوق لأنها تتجاوزه بكثير. إنها الحالة التي يخوض فيها ما لا يطاقُ الكسوفَ ويصبح خدراً. في هذه الحالة المطهرة للألم والخاوية من الذكريات، لا إيمان بالبعث، ولا إيمان حقيقياً بعودة الربيع، أو بالحب، أو بثغرينا وقد تلاقيا في قبلة.

هل كان الأمر دائماً كذلك؟ هل كنا قريبين جداً كتيارات هائجة تجري جنباً إلى جنب؟

لو كانت لدي البصيرة لأتذكر أن خدري الحالي يأتي خاصة من حبي الشديد، لكان سيثبت كل شيء. لكن المنطق ليس خادماً للحب، كما لا يخدم الخدرُ أيضاً.

كم أنجرف بكل الحماقة. كم مهجورٌ داخلي.

ألمح أحياناً طيفَ صحوة - لكن إنْ هي إلا كابوس المعرفة المتأخرة، هي كثوران بركان في مخيلتي، وتترك ضباباً أشدّ كثافة. مثل رجل مجنون يتطلع بطرف عينيه إلى خرزة، أرى شجرة الكرز تلك والعشب الأخضر، وأكثّف انتباهي عليها، وألوي كل شيء في ذاك الاتجاه. سيتحقق ذلك من خلال الدقة المفرطة للرجل المجنون.

لكن الغد والغد والغد يكمن عصياً ومجهولاً كالوجه الآخر للقمر، والاهتمام تجاه ذلك أقلّ بكثير. أصل إلى شجرة الكرز ونزهر جميعاً. أو أصل إلى الشجرة ونموت. لكني أصل إلى الشجرة. هذه هي خطتي بالكامل وكل أهدافي للأربعين سنة المتبقية من عمري، وهو ما يبدو مستحيلاً، إذاً، قد بقي لي الكثير.

أتمشّى قرب المحيط الهادئ مثل ديدو، أسمع شغفَ الدمع في الأمواج المتكسرة، حتى إني أتساءل لماذا لا يبكي العالم كله دون عزاء.

فوق العشب، وتحت أشجار الصنوبر، أقف منتصبة، لأن مجرد الاتكاء يذكرني بوضعيات الحب، وأنا عاجزة عن تحمل آلام الكثير من الذكرى. ثم أرتقي المرتفَع متأملة قدمي بافتقار شديد يائس لكل المشاعر، وأقول، آه، هل هي أيضاً تضغط على قدميها في خدمة الرتابة المهدِّئة؟

في اللحظات الخاملة حيث يكون الجمال، رغم وضوحه أمام

العين، غير مُدرَك وغير محسوس، أعرف بدوري ما تشعر هي به بينما تمشي دون قلبها.

وماذا عن ملاكي، ملاكها المفقود الآن، وقد أوقف إطلاق النار في جميع الحروب؟ إنه يتخبط متقاعساً، مفتقراً إلى الوسائل، بينما اخترقتْه ليلة ربيعية تدخل نيويورك بشكل غير قانوني.

من كانتِ القديسات الإناث، أقول، وكيف تمكّن من ملء أسرتهن بالرب؟ كيف يمكن لامرأة من هذا العالم الفارغ أن تبني تواصلاً مع الجنة؟ ومن ثم، جالسة على حجر وتحت ذراعي كذبة حياة وردزورث، أسأل نفسي، ما هو الحب؟ أشرحه بكلماتي الأكثر تحذلقاً، مؤكدة لنفسي أن كل ذلك الدم قد أريق ليجعلني فيلسوفة.

لكن طيلة الوقت، مثل حارس منارة جديد، ماسحة البحر بحثاً عن قارب يجلب نميمة وصحُفاً ملونة، تميل روحي بحماس للقبض على حفيف خطاب يجلب لي (وقْفَ التنفيذ).

أمشي في الليل على الطريق الترابية، وأطلق على ضوء القمر اسماً عفيفاً وكنسياً، وأصلي، لئلا أُوْغل في التذكر، ولأصبح ناسكة، ولأجهد في دربي إلى الأعلى أبداً، أو أنزل في وابل من دم الروح.

دعني أستلقي على الحجارة الباردة! دعني أرفع أحمالاً ثقيلة جداً تفوق قدرتي! دعني أبكي أكثر! كي أتألم، بوجه أبيض يتشكل من خلال النار، بسياط التحمل، بحبال الزاهد المنيع، حتى أستحق شارة القدّيس المحتمل!

لكن قدمي تطمس الرسالة التي يبتغي الصمتُ إيصالها إلى أذني، وفي الليل يسقط صدري في يدي ككائن مرهق وتُساء معاملته دون وجه حقّ.

لكن لمَ الإسهاب؟ فلْتُقَلْ حتى يفهم الجيران: عندما نستلقي في السرير أشعر...

ألا تشعرين بالحزن لأنك وحيدة؟

نعم، أشعرُ، ألا تشعرُ أنت.

آه، والبرد قارس في السرير.

على أي جانب كانت الشقراء الجميلة تستلقي؟ ذلك يلهمني.

تُدلي القرانيا آذانها. قد تغلّب عليها الصيف. كما تغلّب الإنجاب على عبث الحب. أنا أغدو أثقل من أن أرقص على المينويت.

إنها تنتظر طفلاً آخر في الأشهر الستة المقبلة.

همم. همم. كما اعتقدتُ تماماً.

بينما كنت أسير في جزء كثيف من الغابة صادفتُ قبراً صغيراً. اعتقدت أنها زهرة جديدة، كان هناك نوعان من نباتات زهرة الربيع ينموان عليه. من يسقي عارها بدموع من شجر الأرز المتحلل؟

لم أشأ سؤال أحد. إنهم يراقبونني بدقة. يحدثون ثقباً في إصبع زفافي لأنه عار، ويقيسون بطني مثل الخياطين، لنسج نميمة كبيرة.

أنت في حالة سيئة أليس كذلك يا عزيزتي؟ أأنت في مأزق؟

أوه لا، شكراً لك، أنا بخير، أنا بخير. أحتاج القليل من المال ربما.

إذا كان هناك أي شيء تودين قوله لي، يمكنك الوثوق بي، كما تعلمين. لقد مررت بالكثير، أنا وزوجي، لدينا خبرة.

أوه لا، شكراً لك، أنا بخير.

لا أودّ أن أقول شيئاً لكن الأمر كان مريباً، الطريقة التي وصلت بها وما إلى ذلك. أنت تعرفين كيف سيتحدث الناس، وأنت لا تبدين أكثر من طفلة.

أوه، أنا مسنة، عمري 23 عاماً.

حقاً! لم أكن لأتوقع ذلك. أنا أبلغ من العمر 35 عاماً. لديّ جناح غرفة نوم وجناح صالون ومفارش من الدانتيل ورف من خشب الماهوغني للمجلات: نحن مفعمون بالهمّة، زوجي وأنا.

سمعت بنات الجيران يتحدثن: تحت القمر، هُوَ! هو! هو! ماذا كنت تفعلين عندما أوقفتِ السيارة عند منعطف الطريق؟

أوه! أنا لست جذابة على الإطلاق، أشعر بالملل الشديد عند التقبيل، لكني لا أحب أن أجرح مشاعرهن. الأمر مختلف مع بعض صديقاتي، كما تعلمين، يجب أن يمتلكن الكثير من ضبط النفس، لن تصدقي كم يحتجن ذلك. لا أعرف ما هي مشكلتي، أعتقد أنني ولدت هكذا.

تم حرق الساحرات على العمود، في جميع أنحاء نيو إنغلاند، من أجل الحب فقط، فقط لِتَلَبُّسِهنّ أسارير الرغبة المترَعة.

أنا وحيدة. لا أستطيع أن أكون قديسة. أريد الشخص الذي أريده. إنه الشخص الذي اخترته من العالم. التقطته في خضم مشورات باردة. لكن الشغف لم يكن بارداً. أوقَدَني. أوقَدَ العالم. أيها الحب، أيها الحب، امنح قلبي الطمأنينة، طوِّقْني بذراعيك، وامنح قلبي الطمأنينة. تحسَّسْ ابن الحرام الصغير.

يبرز الرأس الصلب الصغير بالقرب من مثانتي. هذا طفلنا. هذه مكافأة الحب. لهذا أشرب الحليب وأُصِمُّ أذنيّ أمام صدمة الكارثة وغيظ النميمة ورعد الحرب. أستمع إلى موتزارت، أجمع زهور الربيع وأنا أتجول في الشمس.

يطردُ الطفلُ الهدوءَ، لكنه لا يستطيع تبديد الشعور بالوحدة. يمضي الوقت، لكن الشعور بالوحدة يكبر أكثر من الطفل. إنه أكثر ثقلاً.

أيها القمر المهدور، يا أزهار الربيع والليلك المهدورة بينما أعبر الطريق. أوقفوا كل المغريات لتتبدد عند قدميه، كي تفوز به الحياة، ويكون بجانبي. كونوا حلفائي، أيها السرخس المتفتح، ويا فَراشَ الغابة.

لكن الربيع العنيد يستمر ويتجرأ على الانتهاء دون حضوره، وأنا أنمو من شكل إلى آخر، ويقفز الطفل الغافل دون أن ينتظر أباً.

مكثتُ أربعين يوماً في البرية ولم تأتني حتى رؤيا واحدة مقدسة. المشاهد تبهر العين، لكني أستلقي في الشمس دون أن أستلهم مجازاً واحداً منها. الطبيعة تستغلني. أنا البذرة. عند القفز على الصخور والتلال، لدي توازن مختلف، وأسقط إلى الخلف أو أتعثر بسهولة، مثقلة من الأمام.

لكني لا أستنبط أوجه تشابه من الرسومات، ولا أرمي أياً من الكلمات الفضية البراقة من لقاءاتي. أَسْدِل الستائر على عينيّ يا جنيني.

لكن عينيّ، مثل الشمس الغاربة الدامية، تنظران عبر الحجب والضباب الذي ينبعث من الحزن، نحو اللقاء الذي يجب إما أن أحظى به أو أن أموت. ومثل الربيع، تتفكك إرادتي التي كانت تعمل إيجاباً بجلبة مسعورة. لقد خرجت من مرج الهدوء، ولا شيء، لا شيء يمكن أن يجعلني أؤمن به.

لا يمكن للجيل القادم أن يحدَّ من شغفي. لا أحد يستطيع أن يرمي لي بِحبل بَكَرَةٍ. عليَّ أن أقتفي خطواتي وأتقبل عقوبتي. لا أستطيع أن أعيش بعيداً عن عذابي، على أمل إنقاذ شيء ما من الدم. لا أستطيع إنقاذ الذاكرة ولا الطفل. الحب هو شبيهي أو لا شيء آخر.

أيها الألم، أيها الألم الذي سيأتي لي بابني، انزل عبْرَ ستائر طبيعة الزوجة المتصلبة، واعطني الحقيقة أولاً، أو لا تعطني شيئاً. الطبيعة

تحارب من أجل جنينها مثل إناثِ نمورها وبكل أسلحتها، لكن عقلي متيقّظ بالألم، ويحدث تجويفاً في الخلاص الطبيعي.

تغذّ قدماي الخطى في الشارع الرطب للحاق بالقطار، وتمسك يدي بتذكرتي إلى عذاب الجحيم. انحني يا شجرة الكرز الطويلة، سألتقي بحبيبي.

لا أوقية عزاء إذا فشل هذا الأمر. لا قيامة ولا حياة آخرة. جربتُ صنوفَ العلاج وفشلتْ جميعاً. ينمو اليأس مثل غربال للأمل. ينمو اليأس، ومثل طائر الوقواق يطرد طفلي النائم. ربما، ربما، لكن لا يمكنني الانتظار أكثر.

أيها القدر، هاكَ إنـذاري النهائي، الذي أرسلته، ووقعته هذا اليوم بيدي، موقَّعاً وممَحّصاً على أكمل وجه، وصيّتي الأخيرة غير القابلة للتعديل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

القسم العاشر

قرب محطة غراند سنترال جلست وبكيت:

لن تهدئني نقلات الوجود الميكانيكية، ولن أجد العزاء في اهتمام النُّدُل الذين لاحظوا وجهي المنكوب. يحاول النوم إغرائي فيعِدُني بغد أكثر تعقّلاً. لكني لن أُخدَع بيهوذية سفسطة كهذه: إنها تخدع الجميع: تقودهم إلى الموت. الجميع يذعن: الجميع يتنازل.

يقولون، كلما تقدمْنا في السن قبلنا الاستسلام.

لكنهم يترنحون وصولاً إلى سنِّهم عمياناً وغير معترضين. ومن خطاياهم، خطيئة اتباعهم مثل هذا القواد حتى الموت، لا يوجد انعتاق. إنها الخطيئة التي تؤدي إلى الجحيم.

***

ولكن ماذا سوى المورفين يمكن أن ينسج شباكاً متينة حول سمك القرش الذي يمزق ذهني إلى أشلاء محاولاً الهروب من كل الجهات المستحيلة؟ توصِلُ الحواسُ المستحيلَ إلى النوم، ويتوقف، إلا أنه يظهر بشكل مرعب على أطراف أحلامي، مرسلاً إشارات مروعة تُجْهِز على السلام، لكني لا أستطيع فهمها.

كان الألم لا يطاق، لكنني لم أردْ له أن ينتهي: كان له فخامة الأوبّرا. أضاء محطة غراند سنترال مثل يوم الدينونة. كان مفتول العضلات أكثر من شمشون في لحظة وحيه. كان من الممكن أن يظهر لي حلم دانتي بأكمله. لكن لم تكن هناك من طريقة للمكابدة.

سوف أنجب طفلاً، لذلك فإن كل أحلامي من ماء، ويومئ عبرها شبح كارثة شبه أكيدة. لكن هذا الطفل يرقد الليلة في الداخل مثل الجزيرة المنكوبة والوحيدة في كل البحار.

عندما غاب شارع لِكسينغتون وراء دموعي، وتداعتِ المنازل وأضواء النيون والسديم في الفيضان، كان ذاك الطفل هو المولود العاري الذي تجاوز الانفجار. إنه الشخص المحوري الذي يشدني إلى ركيزتي.

لكن البحر الذي يفيض هو الحب، وهو يتدفق مني مثل جرح شرياني. أغرقُ فيه. تتلألأ نوافذ الطوابق الخمسين وتتداعى في الماء. الماء مليء بالنقاط الفلكية. إنه مصيدة موت مغناطيسية. يصيب اندفاعه كلَّ شيء.

إلى أين نتجه جميعاً في النهر المتورّم لحزني غير المحصور بسدّ؟ يا إعصار، كن حاسماً. انقَضِ بأية وسيلة، فقط انقَضِ.

يعلنُ نفير الحزن انتصارَه. إنه يعصف، ويتوق إلى العنف ليعبّر عن نفسه، لكنه لا يجد شيئاً. لا نهاية. الغرق لا يتوقف. يغور الماء ويتمازج، لكنني لست ميتة. لست ميتة. أنا تحت البحر. البحر كله فوقي.

ثم أغذّ خطاي عابرة محطة غراند سنترال دون أن يقف في وجهي شيء على الإطلاق، مثل سيارة ليموزين مسرعة دون مكابح، مدفوعة بيأسي الزاهي.

إنه يمنحني الموهبة. إنه يتلاعب بمُرْهِبي الماضي الصغار. أُهاجمهم بازدراء.

اذهبوا إلى الجحيم! أقول لمن كانوا يرعبونني عندما طلبت شطيرة بكل تواضع.

إنهم يطيعون الوميض في بؤرة عيني المزججة، لأنها الوقفة الأخيرة الشرسة في سبيل كل ما لدي. لا يمكنني الآن أن أستجدي الانحناءات والابتسامات في كل مكان، لأن هناك اثني عشر سنتاً متبقية من تلك الرشوة الناجحة، ووجهي يطوف بعيداً في نزيف الحزن الذي أذاب حتى طلاء الكُروم، والقصور الزجاجية، وخرسانة نيويورك.

لكن هذه المقاهي الساهرة ترى الكثير من المنسيين الذين يدفئون أجسادهم بالقهوة قبل أن يرموا بأنفسهم في النهر. هذه الطاولات مغطاة بجلد لم يجف الدم عليه قط. وهم يدعون أحدهم لتأليف كلمات الوداع: «وداعاً للجميع – لم أستطع التحمل».

قالوا للشرطة: «كانت تبدو شاردة الذهن، ولكننا في الحقيقة نصادف الكثيرين من هذا النوع. نصادفهم في العمل الليلي».

يهزون رؤوسهم وهم يشاهدونها ترحل، ويكنسون أكواب القهوة الفارغة: «شخص ما أساء إليها»، يتضاحكون على سبيل صون أنفسهم من الرعب المطلق بنكتة تصدّ الأشباح. «الحياة شاقة»

– حسناً، سيدتي، ماذا تطلبين؟

أسابق الكارثة أسفل الجادة الثالثة. إنها تومض في نهر هدسون. عندما أجرؤ على البحث عن علامة للراحة، يشعشع النيون بلا هوادة.

كلا، لن يشفق عليك أحد هنا حيث الفشل يعادل العار، والدموع مفارقات تاريخية، وهي في غير محلها حتى في دور السينما.

(بالتأكيد يا فتى. كلنا نعاني من مشكلات. فلترتدَّ إلى الخلف. تلقَّها بشجاعة).

إذا استطعت أن تبتسم الآن فقد تصيب نجاحاً كبيراً في مجال الإعلان. امرأة شجاعة صغيرة.. يا لها من فتاة. يخفي جوابها الوقح مأساة مغرية. بمجرد أن تشعر، يمكنها أن تبكي. هي أيضاً كانت ذات يوم بشرية. لكن هل ترى أمراً يمكن فعله لأجلها؟ لماذا، فهي تكسب 15,000 دولار في السنة.

***

ثمة شخص ما في المعبد، يا إلهي، وهم يوزعون دولارات زائفة. لم أطلب منهم أن يحسدوني أو حتى أحذية بمسحة عصرية. أردت شيئاً واحداً فقط. أعطيتك التعليمات الكاملة. الاسم، قمت بتهجئته بأحرف طويلة كالقارة، وحتى العنوان، العنوان الذي يصنع شلالات من دمي لأنه عنوانها أيضاً.

قلت بصراحة وبصوت عالٍ: هذا ما أريده. أريد هذا ولا أريد أي زيادة. فقط افعل هذا وسأدفع أي ثمن تطلبه. لم أبدِ أي تحفظات. لقد استغللتَني. لم أحقد قط. لكن يا سيدي، ما أطلبه هو فقط – لماذا تماطل؟ ليس هناك المزيد لأقدمه.

يغطي جابي المحطة شطيرة لحم الخنزير بالخردل وهو واقف، والكل في عجلة من أمره بين العربات. لقد جاء وذهب بينما أضع ثلاثة صلبان على قبري. متى تحظى بوقت للحب يا عزيزي؟

تستوي الصلبان مثل شطيرة لحم خنزير في عقدة صغيرة في معدته.

«إذا كنت في عجلة من أمرك، يمكنك تجريب (تومز) لعسر الهضم. (تومز) مناسب لأولئك المستعجلين».

في الوقت المحدد، مثل آلة ثقب التذاكر، يدخل ويخرج من كهف الوحي. عين مليئة بالغبار من الشارع والأخرى تنظر إلى الساعة. افتحي ساقيك يا زوجتي. خمس دقائق وأتابع عملي.

أراها كثيراً، تقاتل وهي تساوم على جوارب في قبو ميسي. من الذي سيقوّم النمو المتحجر في وجهها؟ من الذي سيقطع هذه العقدة الغوردية؟

نخبكن أيتها الأخوات المجنونات العابثات، نخبكن.

حبيبي مصلوب على صليب عائم، ويصرخ باسمي في الليل بصوت أجش. تسمعه زوجته وتبدو عيناها هالتين سوداوين وسط الظلام في الجهة الأخرى من الغرفة. حبيبي لديه ضمادة كغطاء من الألم حول رقبته، إذ عمَدَ مؤخراً إلى قطع حلقه.

لكن ليس الجرح هو الذي يجعله يتشرّق كلما ابتلع. إنها كرة العالم، مدببة حيث توجد أوروبا، لكنها مغطاة باسمي مثل الشاي الدافئ. كم هو عطشان عندما تغلق تلك الكرة الكبيرة حلقه.

إنه معلَّق، مبلل بدموعه العاجزة، يده مسمرة إلى الحب والأخرى إلى الرأفة، وقدماه مسمرتان إلى خطّ طولِ المحتوم، عائماً في بحار المأساة المتواصلة، في عواصف هذه الأوقات الاستثنائية.

كل نجومي القطبية أصبحت مذنبات. ذهني يطفو كحطام في الفيضان الشامل. لم يسبق لأي راشدٍ سقيم أن تمسك بالعزلة الميلودرامية بهذه الضراوة. ويمضي العالم في زئيره.

نعم، الهستيريا تسوطني باسمه، الأمر الذي يقودني إلى الوحدة المجنونة لأول أميبا منقسمة، إلى الصراخ تحت نافذته. كما لو أن كل عوالم المستقبل تكمن في اقتران خلايانا المنفصلة، أتلوى بيأس، وأصرخ باسمه، بينما تتضاءل بُذيرة أصليَ، كما يذبل الكون كله، مثل تويج زهرة لم تعثر عليه نحلة قط.

لا يزال يتحرك بقلق. وأثناء النوم في عذاب وألم شديد.

هي ترقد في الجانب المقابل من الغرفة يعتمل في داخلها الحزن والحب، أسطورية وحجرية ككاتدرائية كاثوليكية.

كانت الأضحيةَ المثالية. سوف يبكي عليها كل الرجال المتحضرين. ستحزن الجوقات إلى الأبد أمام ذلك النصب التذكاري الشرعي المؤثر. ستُنبتُ دموعهم الراقية عشباً أخضر يلامس ما لم يُلامَس من القلوب.

كلّ قطعة آجرٍّ دمٌ. أدماها النصل عند التعميد، حتى عندما كان وجهها المقلوب يتوقع قبلة المسيح. الحجارة ملساء لأن الألمَ توالى عليها. لقد قصمت كقربان. استشهدت ثلاث مرات، لكنها في المرة الثالثة ماتت حقاً.

يقف مشلولاً ويراقبها وهي معلقة. تدور عينها المحتضرة وترى كيف خانها إلهها. لكنها تتمتم، (من أجل سعادتك...)

للعاهرات عيون تفرُّ كالفئران حول المطاعم المنقطة بحظوظ عشوائية. تثير تهويدات ضحكاتهن المجلجلة الاهتزاز كالمهد الخشبي على الأرض. مَهْدِيَ في الداخل. إنه يهزهز، لكن الإعصار هو ما يهزهزه. مرفقاه ينزفانني. إنه يبعدني عن طريق الأناقة المخطط لها. أيتها الفتيات العاشقات، تذكّرنَ أن تحافظن على رزانتكن، ابقين

هادئات، خططن لحملتكن، المخلصة لكم، دوروثي ديكس. أيتها الفتيات العاشقات، كنَّ عاهرات، فهذا أقلّ إيلاماً.

هو يتهزهز أيضاً على شبكة أرجوحته، عالقاً في إعصار، لكنه معلَّق فوق العذاب الأبديّ. يا إعصار، كن حاسماً. انقَضِ بأية وسيلة، فقط انقَضِ.

كيف لي أن أرأف به رغم أنه يرقد بكل هشاشةٍ هنا في الرياح اللاسعة، بينما أُحدثتْ كل حفرة تنزفني بقبلة له؟ إنه جميل كقصة رمزية. إنه جميل مثل الأسطورة التي يغسلها الخيال على الرمال.

لكن ما الذي يقصفه سوى العناصر العشوائية، رهينة الصدفة كالبرق، كلية الوجود مثل الهواء؟ إنه منفتح على ألف صرخة من الذهول والرعب. يتأرجح في الليل وهو يهذي، يرتجف ويقاتل ألف عدو ومحنة.

لكن طفلي الذي يشتعل يرسخ الحب في داخلي، وأنا مستهلَكة أينما ذهبت، مثل عجلة التعذيب في سانت كاترين، أبدية مثل الأرض الدوارة، واحتمال انعتاقي أقل بكثير.

بعد يوم أو يومين ستهدأ العاصفة، عزيزتي كاثرين. كوني هادئة، كوني لطيفة.

في غضون ساعة، يا ملاك ألمي، هشم مذنبٌ أبديّتَه لقاءَ كارثة مؤبّدة.

الكارثة هي أن النادل ينظف الفُتات من على الطاولة الجلدية الحمراء، مبتسماً بأسنانه الذهبية، كي يتباهى فيما بعد أمام الأولاد.

ليس هناك من غد، لا للمنطق ولا لِسِواه. واليوم، يومي الوحيد، أُريْقُ نفسي دون جدوى على دفتر ملاحظاتي ذي العشرة سنتات، استنفدتْ عيناي الدموعَ. هذه هي الساعة التي استيقظت فيها ذات مرة،

وأنا مسلحة بالازدراء بشكل جميل، وأمرت الشمس أن تشرق. لم تكن تلك الساعة الآن، ولن تقودنا إلى أي مكان. إنها تتدلى بلا معنى.

من يجرجر قدميه قربي معتمداً على الكراسي كي تسنده؟ أنا أفعل ذلك. أنا نفسي. أترنح في المقهى، يتوسلني نوم الزانية. كل دمعة قد ذُرفت والأكاذيب تلطّخ مكان سقوطها. أنا بلا كلمات. أنا بلا أفكار. لأني سئمتُ الحب quia amore langueo. أنا أحتضر في سبيل الحب. هذه هي لغة الحب.

غداً في العاشرة سوف أستقل القطار. كل القطارات تقودني إلى أنهار تغري وتَطْرف أعينُها. خلال النهار، أو خلال الشفق، أمرُّ بالأنهار لأصلَ *النهرَ*. نهر واحد ينتظر. الواحد الأوحد، وهو الذي يعرف كيف سأرتمي في الماء فيصدر الصوت المكتوم.

وأنا مبللة قبل أن ألامس السطح. أنا غريقة قبل أن أصل الطحالبَ في القاع. أتجنب النظرة التي يلقيها عليّ النهر. لكنه يستمر في الرقص. لديه شهوة بي. وأكاد أستسلم.

في أحلامي المليئة بالرعب، يتجمد الماء إلى جليد، والشلال الذي يعد بالعَتْق يظل جامداً وحَروناً. حينها أشعر بالصدمة، مثل رجلٍ حيٍّ في نعشه، أو شبح مقيد لن يطلق سراحه أبداً.

تمتد يد عطفه إليّ، ناعمة كالحمامة، وخده مثل التفاح المبكر. يذرف المواساة على فمي. يقبّل الدوائر الموجودة فوق الماء الذي أرقد تحته غارقة. وطريّةً كسمكة، تنزلق القبلة نحوي، تسبح فيَّ، تاركة وراءها فقاعات الحب. ليس لكل أطنان الضغط من شتى المحيطات أن تصمد أمام تلك اللمسة التي توقظ بي الندم.

عبْر طبقات عصيّة على الاختراق، يتطلّع الغد، مثل صبي متحمس

لسقراط، إلى الغارقة، والدينونة في مقلتي عينيه. أرى أطراف حبيبي وقد اشتبكتْ مع أطرافه. حبيبي يومئ بإشارات. يضحك. يشير. يخفض يده نحو الماء ويعكِّرُ صورتي بالتموجات. يغطيني الطين. يُلقي الطين بستائر على عيني. يرتفع صراخي الآن مرة أخرى على شكل فقاعات، صراخي يخز الهواء فحسب مثل رسائل اليعسوب.

ثم يتبدد الشواش. أرى في الأعلى أمسية صيفية. حبيبي يرقد تحت شجرة الزيزفون ويقبل *الغدَ* بفمه الذي كان لي بأكمله. يا للّغط، يا للصياح العابث العاجز لملعوني الجحيم. يا لَلُغة الحب. غير المفسَّرة. غامضة الملافظ. الحب. الحب. الحب.

أيُحْتَمَل أنه لا يستطيع سماعي رغم استلقائه قريباً جداً مني، سادراً في نوم خفيف؟ هذه الساعات هي الساعات الوحيدة. ما الذي يمكن أن يمنحه النوم مقارنة بما كان يمكن أن أمنحه أنا؟ عليه أن يبدأ. عليه أن يأتي إلى هنا ويجدني.

يصرخ في نومه. يرى طائر الكارثة الضخم يطير قربَه. كلا جناحيه مبطنان بالصحيفة اليومية. خمسة ملايين صوت آخر تصرخ أيضاً. كيف لصوتي أن يكون مسموعاً؟

يقول ملاكه الحارس: ‹ارقدي ساكنةً يا عزيزتي›

‹هل كل شيء على ما يرام؟›

‹لا، لا فرق، ولكن استلقي بسكون›.

ينسلّ الفجر من نافذته مثل حيوان آثم. هذه هي الغرفة التي اختارها عوضاً عن الحب. فلتكن هادئة يعمُّها الشفاء. لكنها بالنسبة إليّ تحجب كل الرؤى، كل الآفاق. إنها الراحة اللعينة التي آثَرها على صدري.

(الآخر) الذي يشاركه الغرفة يبكي في الزوايا بصمت، وهو لطيف لا يلحظه أحد، ويُعِدُّ له شايَه الحيويّ.

(هل رأيتِ مفكرتي يا عزيزتي؟)

(إنها تحت طاولة المكتب يا حبيبي).

أعطه إياها، يا مغتصبتي اللطيفة، ومن اغتصبتُها أنا أيضاً، عدوتي التي قتلتُها وقُتلتُ على يدها. دعيه يكتب كلمات تبرئته من جرائم القتل هذه.

الصفحة بيضاء كوجهي بعد ليلة من البكاء. إنها عقيمة كذهنيَ المنكوب. كل صنوف الاستشهاد تذهب سدى. هو أيضاً يغرق في دماء أُضحياتٍ كثيرة للغاية.

أيها الحب ضع السلاح جانباً، فكل المعارك خاسرة.

وماذا سيقول الورد والزهر لأطفال أختي وهم يلعبون بالقرب من القبر؟ تخز يدي، تلك الزهرة الجميلة. عن وردةٍ كلُّ أغنيتي.

ولكن لماذا قتل بعضُهم بعضاً؟ كيف لي أن أعرف يا صغيرتي ويلهلمين؟ إنها لغة الحب التي لا يفهمها أحد. إنها أول صرخة لطفلي الذي لن يولد. اذهبي إلى حديقتك، لأن تفاحك قد نضج.

مثل الجني عند بوابات الجحيم، يصل الحمالون السود، ويستهلون النهار بالمكانس والمجارف الكبيرة. روائح المطهرات تمحو الحب والدموع. باندفاع ورعد يجتاح العمالُ الأوائل العالمَ الذي ورثوه، فيدوسون لُطَخَ الماضي النازف والنادِب.

(صباح الخير أيها المدير. فنجان من القهوة وبيضتان مقليتان).

انظري إلى الفتى الأحمق الذي أنجبته في تلك الليلة. هو كل العالم المتبقي. إنه أمريكا وأفضل من الحب. إنه وريث الحضارة، يا أيها الغوغاء الذين جئتم به إلى الوجود.

هو أسعد منك يا حبيبي. لكن هل سيملأ هذه الألف سنة القادمة؟ حسناً، الآن فات الأوان للشكوى، يا حمامة قلبي. نعم، انتهى كل شيء. لا ندم. ما من حياة آخرة. يجب أن تتكيف مع الظروف كما هي، هذا كل شيء. عليك أن تتعلم أن تكون متكيفاً.

أنا شخصياً أفضّل سدَّ بولدر على كاتدرائية شارتر. أفضل الكلاب على الأطفال. أفضل عرانيس الذرة على أعضاء الذكور التناسلية. كل شيء مستتب، متأنق، كل شيء على ما يرام. إنه في حقيبة. لا يمكنه أن يخطئ الهدف. مكتبة سُر مَن قرأ

حبيبي، حبيب قلبي، هل تسمعني حيث ترقد الآن؟

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

عندما قرأت هذا الكتاب للمرة الأولى منذ سنوات قليلة مضتْ، تركَني في حالة ذهول. يا له من شيء جبار، يا لها من تجربة تستحق الاستغراق فيها، يا لها من حياة عليك أن تعيشها. شعرتُ بتبلّد الإحساس، بالقصور المعرفيّ، وبأنني غير مهجوس بالمقارنة. على أي سطح أتزلج؟ لماذا لا أستطيع الغوص في الأعماق؟ ثم تطلّعْتُ حولي وقررت، باللجوء إلى فعل بسيط من المعاينة الوجدانية، أنني أيضاً أحب بَدِيليَ جورج باركر وأنني أيضاً أحب أطفالي، وذلك بنوع من الحب الراسخ والعميق، الحيوي والتوجيهي، كما إليزابيث سمارت. لكن في الغالب لا أحد يتمعّن في مشاعري أو يتفكّر فيها، منحّاة جانباً من قبَل العالم المتطفّل ومتطلبات الحياة اليومية التي لا نهاية لها - فأنا الآخر لديّ أربعة أطفال. الحب المُعاش له جوانبه المملّة. لكن بالتأكيد، هناك الكثير من الحب الذي سيأتي، وبالمقابل هناك أيضاً الفواتير التي سيتعيّن علينا دفعها والبقالة التي لا مناص من شرائها.

وهنا تكمن عظمة إليزابيث سمارت. إنها تستعين بما لك ولي، وبما هو مُعاش في كل يوم وفي كل مكان، وما يوجد في كل ضاحية وفي كل شقة، كي تُحيلَه أسطورياً. أنت لست فقط دوريس وديف اللذين يعيشان في إسّكس. أنت أيضاً تريستان وإيزولد، روميو وجولييت، دانتي وبياتريس، وإليزابيث وجورج - أنت فقط لا تدرك ذلك، أو سهوتَ عنه للحظات، أو فاتك القطارُ اللحظةَ (لكن ربما لم يفت الأوان كي تستقلّ التالي).

اقرأ هذا الكتاب بصوت عالٍ، فمع أن الحب هو الثيمة، تبقى اللغة هي الحبكة والشخصية والمحيط الروائي. إنه كتاب مثالي لأن يُشارَك ويُقرأ بصوت عالٍ على مسامع شخص ما. ويحدوني الأمل، أثناء قيامك بذلك، أن تجد أنك أفقتَ من سبات دام مائة عام.

مكتبة
t.me/soramnqraa